من قضايا اللغة

التوالد اللغوى فى العربية

بين أصالة المبنى وتفريعات المعنى

تاليف

د. ربيع محمد مصطفى صادومة

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الخالق الرازق المحيى المميت الباعث الحى القيوم ، له الأسمـــاء الحسنى ، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه سيدنا محمد بن عبد الله .

وبعد ،

فإن من أنعم النظر فى اللغة وأكثر التنقل بـــين أطبائـــها وأوكارهـــا ، وسهولها ونجادها تظهر له من أسرارها الخفية معالم مونقة ومظاهر مورقة ، فتلـــح عليه لتتبعها واستجلائها ، وإذا به لا يجد مفراً إلا أن يستجيب لهذا الإلحـــاح ، وإذا به عاكف فى محراب البحث عقب ذلك ، ليجمع شـــتات هـــذه المعـــالم وتنوعات تلك المظاهر لينصب بحثا شاق المبتدى رائق المنتهى .

فهكذا كنت مع هذا البحث " التوالد اللغوى .. " إذ رأيت – كمـــا يمكن أن يرى ذلك غيرى – أن اللغة آخذة من طبيعة الإنسان بحظ وافر ، لأنهـا لصيقة به متغلغلة فى كيانه ، وقد استقر ذلك فى ذهنى وقـــر فى نفســـى ، لمـــا وجدت أن فى اللغة – المذكر والمؤنث والصحيح والمعتل والمستعمل والمـــهمل ، والمولد والممات ، والصلبى والمتبنى .

ولما وجدت من جهة أخرى أن أظهر ما فى اللغة اتصالاً بالإنسان هـــو توالدها وتكاثرها ، وكأنها تحاذى أو تجارى سرعة تكاثر البشر وكثرة حاجيـاتهم ومطالبهم .

فهذا المظهر التوليدى فى لغتنا العربية إذا جدير بالبحث والتأمل ، ومـــن خلاله يمكننا رصد معالم لغوية أو ملامح علمية تضيف نقاطا جوهرية إلى مجالات فقه العربية .

ومن ثم فإن خطوات هذا البحث سوف تتحدد بالمباحث الآتية :

المبحث الأول : **بين يدى الموضوع** .

المبحث الثانى : **أمهات الألفاظ** .

١- الألفاظ الطبيعية ٢- الألفاظ الحسية ٣- الألفاظ الحقيقة

المبحث الثالث : **المولد والمعرب** .

خاتمة البحث : **ضرورة التوالد والتبنى فى العصر الحديث** .

وأدعو الله سبحانه أن يوفقنى إلى ما يحبه ويرضاه ، فإنه ربى وهو حسبى فنعم المولى ونعم النصير .

المبحث الأول : بين يدى الموضوع

ليس هنالك إجماع ولا شبهه بين العلماء – لغويين وغـــير لغويـــين – بصدد بداءة اللغة ، وإنما الأمر إلى الآن – وبعده – مجـــرد آراء توســـم عنـــد التقييم العلمى بأنها آراء ظنية ، شأنها شأن أخبار الآحاد ، لا يجوز أن يؤخذ منها حكمى قطعى ، ولا تبنى عليها قاعدة مطردة ، ولذلك سيبقى هذا الموضوع بابا مفتوحاً لاجتهادات المجتهدين .

غير أن الأمر الثابت الذى لا يصح فيه جدل ، ولا يستســـاغ حولـــه نقاش أن الإنسان يوم حل بالأرض ليعمرها كان معه لغته التى عُلّمها لأول الأمر ، ثم أخذ يضيف إليها كلما جدت لديه مطالب أو ألحت على فكره مآرب .

وفى – رأيى – ورأى كل منصف – أن هذه اللغة التى جـــرت علـــى لسان الإنسان الأول هى اللغة الأم التى ولدت منها – مع مرور الأيام وتعـــاقب القرون – جميع لغات سكان الأرض ، وصارت هذه اللغة الأم من بعد ميراثـــا لكل بنت من بناتها نصيب مما تركت .

ذلك ، لأن القانون المنطقى أو البدهى قاض بأنه لا شئ من لا شـــئ ، وهذا يدرأ زعم من يرى أن الإنسانية ربما مرت عليها فترة دون لغة ، كما يدرأ قانون الوراثة زعم من يعرف بأن أم اللغات ليست واحدة ، بل لها أكثر من أم .

فتلك مزاعم لا تثبت أمام النقد العلمى ، لأنها مخالفة لقوانين طبيعيـــة تجمع عليها الفطر السوية .

وإن من المقرر والمعروف أن اللغة الأولى – أم اللغات – بـــدأت مـــع التاريخ البشرى ولم تسجل ، وقد أنجبت بنات حملت فى البدء خصائص أمـــها للصلة المباشرة بينها وبينهن ، حتى ظهر فى التاريخ اللغوى حفدة سجلت معالمها

أو بعض منها ، ولم يجد العلماء بدا من تنصيبها أمهات تحتوى كـــل منـــها – بحكم قانون التطور – على خصائص وصفات تميزها عن سواها ، فكان هـــذا التقسيم الذى أومأ إليه العلمـــاء قديما ، واصطلح عليه العلماء حديثا وعـــرف باسم الفصائل اللغوية ، وكانت لغتنا العربية بنتا لإحدى هذه الفصائل ، تلـــك التى عرفت باسم الفصيلة السامية .

وقد اختصت العربية من بين بنات الفصائل بأنها مجهولة الطفولة حـــتى كاد بعض الباحثين يخرجها عن نواميس الطبيعة لنشأة اللغات ، ولكننا نقـول : إذا كانت العربية مجهولة المولد فإنها معلومة التوالد ، إذ هـــى بعـــد أن شـــبت ونضجت صارت تمارس وظيفة الإنجاب التى منها كانت فتوالـــــدت وغـــدت مواليدها صالحة للإنجاب ، وحتى يوم الناس هذا ، سنة الله فى خلقه .

وطبعى أن يكون ثم تداول بين مولود فى اللغة ومفقودها منها ، ونحـــن نلمح ذلك فيما رواه " ابن دريد " عن " أبى عمرو بن العلاء " قوله : مضنى – أحزننى – كلام قديم قد ترك [1] .

وقد فطن علماؤنا القدامى إلى هذه السنة حينما وقفوا عند مـــا سمـــوه بعصور الاحتجاج ، وسموا ما بعدها مولدا ، وهم لم يقصدوا أن اللغة العربيـــــة كان ينبغى أن تقف عند هذه العصور بالطبع ، إلا أنهم قصدوا تحديـــد أزهـــى فترات اللغة لوضع قواعدها العامة التى يمكن أن تستوعب مســـيرتها الحـــاضرة والآتية ، فهم مدركون – وحاشاهم أن يجهلوا ذلك – أن اللغة ما كانت لتقف عند عصر معين ، فهى مستمرة التوالد دائمة التناسل ، طالما يتوالـــــد البشـــر ويتناسلون .

---

(1) انظر المخصص ، لابن سيده الأندلسى ٢٥١/١٤ .

ومن منطلق هذا الفهم يجب ألا نفهم بعض ما قاله بعـــض علمائنـــا إلا على هذا الوجه الذى ذكرت ، فلا يسوغ لمن قصر فهمه دونهم أن ينعتـــهم بالجمود والتعنت ، وهم من كل هذا برآء .

فقول " ابن فارس " ليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه " [1] .

قد يفهم منه البعض لأول وهلة ، أنه ضد نمو اللغة وأنه صدى نـــبَّ فى القرن الرابع الهجرى ، لصوت قبَّ فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، وهو صوت " أبى عمرو بن العلاء " الذى روى عنه أشبه الـــرواة بـــه ، وهـــو تلميـــذه " الأصمعى " قوله : جلست إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتـج ببيت إسلامى [2] – يعنى من الشعر – :

وفى الحق أن هذه الأصوات والأصداء ما هى إلا تصوير مجسم لواقع اللغـــة فى تلك العصور الأولى ، ألا ترى إلى قول ابن فارس : ليس لنا اليوم – يعـــنى قرنه الذى عاش فيه ؟ إذ العربية كانت آنئذ أوفى ما تكون أداء وأقوى ما تكون بناء ، فماذا يضيف المخترع ؟ وماذا يأتى به القائس ؟ وهما قد كفيـــا حينئـــذ مؤونة ذلك .

فلم يقصد ابن فارس – أو غيره – اليوم وما بعده إلى قيام الســـاعة ، لأن من البدهى أن يدرك بلا أدنى تكلف أن الحياة تتوالد وتتكاثر فيها الكائنات الحية بصورة مطردة ، ولا يد لأحد فى وقف ذلك وأن لكل عصر ظروفه الـــتى تختلف عما سبقه ، وأن اللغة مواكبة لحاجة كل عصر ، لأنها جزء منه ، أو كما

---

(1) الصاحبى .. لابن فارس ص ٣٣ .

(2) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥ ، وما بعدها .

يصفها " فندريس " : فى أحضان المجتمع تكونت اللغة ، ولـــدت يوم أحـــس الناس بالحاجة إلى التفاهم بينهم [1] .

ففى عصور العربية الأولى – أعنى ما سمى بعصور الاحتجاج – قد أتيح لروادها – بحكم فصاحتهم – أن يبتدعوا ويرتجلوا ويشتقوا ويسدوا حاجـــات المجتمع اللغوية ، ولو أراد هامز أن يضيف بعض ما يعاب به فيلصقه بهم ، فلربمـا أفلح إلا فيما رزقوه من الفصاحة والبيان ، فقد روى " الأصمعى " ما أنشـــده " المكعبر الضبى " يصف طائفة من العرب بالكسل ولكنه رأى من الواجب فيما أنشد أن يستثنى منطقهم اللغوى إذ قال [2] :

كسالى إذا لاقيتهم غير منطق يلهى به المحروب وهو عناء

فقد كانت قدرتهم على التوليد أمرا ذائعا ، لا اعتمال فيه ولا تكلـف ، روى القالى فى أماليه عن " الأصمعى " عن " أبى عمرو بن العلاء " قال : لقيـت أعرابيا بمكة فقلت : ممن أنت ؟ قال : أسدى ، قلت : ومن أيهم ؟ قال : نمرى ، قلت : من أى البلاد ؟ قال : من عمان ، قلت : فأنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : إنا سكنا أرضا لا نسمع فيها ناجخة التيار ، قلت : صف لى أرضك ، قـــال : سيف أفيح وفضاء ضحضح ،وجبل صردح ، ورمل أصبح ، قلت : فما مالك ؟ قال : النخل ، قلت : فأين أنت عن الإبل ؟ قال : إن النخل ســـعفها ضيـــاء وجذعها بناء وكربها صلاء ، وليفها رشاء وخوصها وعاء وقروها إناء [3] .

---

(1) اللغة / فندريس ص ٣٥ .

(2) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/٥ وما بعدها .

(3) انظر المزهر للسيوطى ١/١٤٥ .

فهل كان الأعرابي قد أعد هذا الجواب من قبل ؟ كلا ، إنه يختزن فى صدره ما تمخضت عنه بيئته من ألفاظ ويستأنف ما يحتاجه منها توليداً ، إما ارتجالا وإما اشتقاقا ، روى صاحب المخصص أن أول من سمى السيف صمصامة " عمرو بن معد يكرب " حيث وهب سيفه ثم قال [1] :

خليلى لم أخنه ولم يخنى على الصمصامة السيف السلام

وروى عن " أبى زيد " : والغالية – وهى مسك وعنبر يعجنان بالبلن ، ويقال : إن الذى سماها غالية " معاوية بن أبى سفيان " رضى الله عنه ، وذلك أنه شمها من " عبد الله بن جعفر بن أبى طالب " فاستطابها فسأله عنها فوصفها له ، فقال : هذه غالية [2] .

ونقل عن " سيبويه " قوله فى سعاد وأخواتها : إنها اشتقت فجعلت مختصا بها المؤنث فى التسمية فصارت عندهم كعناق... قال " الفارسى " : قال : " أبو عمرو الجرمى " : معنى قوله مشتقة أى مستأنفة لهذه الأسماء ، لم تكن من قبل أسماء لأشياء أخر ، فنقلت إليها وكأنها اشتقت من السعادة أو من الرب أو من الجأل ، وزيد عليها ما زيد من ألف وباء لتوضع أسماء لهذه الأشياء ، كما أن عناق أصله من العنق وزيدت فيها الألف فوضع لهذا الجنس [3] .

فإذا أردنا أن نصف جيل الفصحى فى مهدها الأول فلن نصفهم بأكثر مما وصفهم به " الجاحظ " إذ قال : كان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومن البيان أرفع [4] .

---

(1) المخصص لابن سيده الأندلسى ١٩/٦ .

(2) المخصص لابن سيده الأندلسى ١١ /٢١٠ .

(3) السابق ٦٠/١٧ .

(4) البيان والتبيين ١٢/٢ .

أقول هذا كثيرا وأؤكد عليه لأعطى شداة اللغة ورواتهـــا وعلماءهـــا الأوائل حقهم الواجب علينا نحوهم ، إذ ربما رأينا من بعض الباحثين حديثا مـــن يتحامل عليهم ، مثلما نرى من بعض المجمعيين وهم بصدد مناقشة من له حـــق الوضع والتوليد حديثا ؟ فما الذى هدف إليه الأستاذ " الزيات " حين ورَّى عن ذلك بقوله : ما الفرق بين سؤالنا هل للحدثين حق الوضع ؟ وســـؤالنا : مـــن الذى يملك على التراث حق الانتفاع به وحق التصرف فيه ؟

الميت الذى وُرث ثم غاص فى أعماق العدم ؟ أم الحـــى الـــذى وَرث ولا يزال يضرب فى آفاق الوجود .

اللسان الذى سكت وبلى وانقطعت أسبابه بالحياة ؟ أم اللسان الـــذى لا يزال يتحرك ويلغو ليسمى كل وليد تصنعه القريحة ويعبر عن كل جديد تخلقه الحضارة ؟

حتى قال : إن المجتمع عطل حقه فى الوضع ، وأنه من حق المحدثين فـــهم وارثوا اللغة وأصحاب الحاجة [1] .

وإنا لنقول : نعم إنهم ماتوا وتركوا ميراثا صرنا به أغنياء ولولا ذلـــك لكنا عالة نتكفف الناس .

وأيضاً ما الذى قصد إليه الأستاذ المغربى " عبد الله كنون " حـين رأى : أنه لا حق لنا ولغيرنا فى تقييد الوضع بالزمان والمكان المحددين ، ونحن بوســائلنا الميسرة ربما أقدر على الوضع ممن سبقنا [2] .

---

(1) انظر مجلة المجمع اللغوى القارى ١٣٨/٩ ، لعام ١٩٥٧ م .

(2) المرجع السابق – مؤتمر الدورة الثلاثين ص ١٦٥ ، ١٩٦٣ م .

وإنا لنقول أيضا إن الحديث الحماسى المنفعل لن يغير الحقائق ألبتـــة ، وإذا كانت وسائلنا ميسرة فنحن نسأل : من الذى يسرها ؟ ولا إجابة إلا أنهـــم العلماء الأول ومعهم الشداة والرواة هؤلاء الذين ووروا تحت الثرى ، بيـــد أن أسماءهم وآثارهم وكذلك قضاياهم مازالت تشغل أذهان الباحثين فى عصرهـــم هذا الأخير وإلى عصور تالية نكون أهل هذا القرن الذين اندثرنا وخبت أسماؤنـــا وقضايانا ، ولن نكون بحال أبدا أقدر منهم على الوضع والتوليد ، فتلك مبالغـــة لن تتحقق مادام خبر ليت أضغاث أحلام .

فالأحرى بنا أن ننتفع بتراث أسلافنا الغابرين وألا ننال منهم بحال مهما بدا فى آثارهم من ثغرات ، هى فى الحقيقة لا تحسب عليهم لأنهم بَدَأَةَ ، وهـــم من فجروا ينابيع البحث ، ويسروا – بعد جهد ومشقة – القضايا اللغوية الـــتى تبوأ بها المحدثون مقاعد سامقة ، ولم يألوا فى ذلك جهداً ولم يدخـــروا وســـعا ، وأسسوا بناء لغويا ما زلنا نتفيأ ظلاله ، ونستمد منه حاجاتنا لدى بناء أبحاثنـــا ، وما كان لنا أن نبنى لولا أن أسسوا .

يقول بعض الباحثين – وهو بصدد الحديث عن تاريخ علـــم تحقيـــق النصوص عند العرب – لقد سبق العرب علماء أوربا إلى الاهتداء للقواعد الـــتى يقابلون بها بين النصوص المختلفة لتحقيق الرواية ، والوصول بتلك النصـــوص إلى الدرجة القصوى من الصحة [1] .

وإذا نظرنا إلى مجالات أخرى تنتظم اللغة بصفة عامة وإلى مجال التوالـــد اللغوى بصفة خاصة وجدنا باعهم القوى وذراعهم الفتى وقد أحـــاط بتلـــك المجالات كلها إحاطة السوار بالمعصم كما سيظهر لنا من خلال المبحث الآتى إن شاء الله .

---

(1) د / رمضان عبد التواب ، فى مناهج تحقيق التراث ص ١٣ .

المبحث الثانى : أمهات الألفاظ

جاء فى المخصص أن العرب تقول : أصل كل شئ أمه ، ولذلك قال " سيبويه " : إنْ أم الجزاء ، والألف أم الاستفهام ، وإلا أم الاستثناء ، والواو أم حروف العطف ، يريد أنها أصول هذه الأبواب ، وكذلك كل حرف كان مشتملا على الباب الذى هو فيه [1] .

وأعنى هنا بأمهات الألفاظ الأبنية الأصلية المجردة التى استنسخ الناطق العربى منها فروعا لمعان مستوحاة من المعنى الأول للبناء الأصلى .

واخترت أن أقول أمهات الألفاظ لأن معجم العربية قد حوى ثروة لفظية لا تكاد تضاهيها ثروة فى لغة أخرى فيما أعلم ، فهكذا رأى الباحثون حديثا أو بعضهم " بأن العربية قد تجمع فيها من المفردات فى مختلف أنواع الكلمة اسمها وفعلها وحرفها ، ومن المترادفات فى الأسماء والصفات والأفعال ... ما لم يتجمع مثله للغة سامية أخرى ، بل يندر وجود مثله فى لغة من لغات العالم " [2] .

ولما قارن المستشرقون بين العربية وأخواتها فى الفصيلة السامية من حيث المفردات شهدوا بترقى العربية ترقيا أكثر من أخواتها الساميات ، إذا باتت تخترع ألوفا من الكلمات الجديدة [3] .

فرأيت أن تلك الثروة ما كان لها أن تكون دون أمهات قد ولَّد منها الناطق العربى ما شاء له من ألفاظ قامت هى الأخرى فيما بعد بدور الأمهات ،

---

(1) المخصص لابن سيده الأندلسى ١٣ /١٨٠ .

(2) انظر فقه اللغة / د/ على وافى ص ١٦٨ .

(3) انظر التطور النحوى لبرجشتراسر ص ٢١٠ ، وما بعدها .

وهكذا دواليك ، لأن صفة التوالد فى العربية – بمعنى قابلية ألفاظـــها للنمـــو الذاتى بما ركب فى طبيعتها من أسباب ذلك – هو أوضح صفاتها ، وذلك أمـــر يعرفه الباحثون والعلماء منذ القدم ، ولأجل ذلك فإن ثروة العربيـــة اللفظيـــة وثيقة الصلة بعضها ببعض وآخذ بعضها بحجز بعـــض ، فبينـــها – فى الأعـــم الأغلب – كما بين البشر من نسب ومصاهرة ، وأحياناً ما بينهم من جوار .

يقول صاحب الفهرست – ابن النديم – : " لم يـــزل ولـــد إسمـــاعيل يشتقون الكلام بعضه من بعض ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حـــدوث الأشياء الموجودات وظهورها [1] .

ويقول " ابن فارس " أيضا : أجمع أهل اللغة – إلا من شذ منـــهم – أن للغة العرب قياسا ، وتشتق العرب بعض الكلام من بعض ..... [2] .

وبادئ ذى بدء إذا أردنا تحديد أمهات الألفاظ إجمالا ، فإننا يمكننا ذلك بالنظر إلى عدة اعتبارات :

فبالنظر إلى الطبع والوضع سنعلم أن الألفاظ الطبيعـــة هـــى أمـــهات الألفاظ الوضعية ، وبالنظر إلى الحسى والمعنوى سنرى أن الألفاظ المحسوسة هى أمهات الألفاظ المعنوية ، وبالطبع إذا نظرنا إلى التجرد والزيادة ، فإن المجـــردة هى أمهات للمزيدة – فى الأعم الأغلب – وكذلك بالنظر إلى الكمية فســـنرى أن الثلاثية – غالبا – هى أمهات الألفاظ الرباعية وما فوقها ، وأن الثلاثية أيضا ربما كانت متولدة من ألفاظ ثنائية ، أو الأصح بعض الألفاظ الثلاثية .

---

(1) الفهرست لابن النديم ص ٥ .

(2) انظر الصاحبى لابن فارس .

وأخيراً إذا نظرنا إلى النوع ، فربما كان المصدر هو أم المشتقات ، وربما كان الفعل الماضى ، أو كان الاسم بصفة عامة هو أسبق قسيميه الفعل والحرف ، أو كان أحد القسيمين هو ما سبق وردفه أخواه .

ولنأت إلى تفصيل تلك النظرات والاعتبارات ولكن بإيجاز على النحو التالى :

أولا : الألفاظ الطبيعية :

وهى الألفاظ التى اجتثت من أحداث واقعة فى الطبيعة مسموعة كـلنت تلك الأحداث أو محسوسة .

وتلك الألفاظ الطبيعية لا نزاع فى أنها الأمهات الأولى المعلومـــات فى اللغة بعد تدوينها فكريا أو كتابيا ، وليست هى الأمهات الأول اللاتى خطـــت بها اللغة خطواتها الأولى إلى الوجود ، على عكس ما توهـــم البـــاحثون قديمـــا وحديثا فى جعلهم إياها منحى من مناح مفترضة للبحث عن نشأة اللغة .

فبين هذه وتلك أحقاب لا يدرى التاريخ شيئا عنها ، فالأمـــهات الأولى التى من لدنها نشأت اللغة ، قد أمست بذورا دفنت فى أرض اللغات لا يـــدرى عنها أحد شيئا مهما عمق بحثه .

أما ما دونته المعاجم ولازالت الحناجر تنبث ببعضه فتلك هى الألفـــاظ الطبيعية ، أو الأمهات الأولى المعلومة لنا والتى صيغت لأول الأمر على ســـبيل الحكاية لتكون ميسما للأحداث المحيطة بالإنسان [1] .

وهذا أمر معروف فى العربية منذ القدم ، حتى وجدنا أحد خبرائها وهو العلامة " ابن جنى " رأى أن : مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحـــداث باب عظيم واسع ومنهج متلئب عند عارفيه مأموم .

---

(١) أقول " مسميا للأحداث " ولم تكن – كما رأى البعض – تعليما وتوجيها للإنسان ، كيـــف يلغـــوا ويتكلم ، فالإنسان سيد الطبيعة .

ومن الأمثلة التى دلل بها على ذلك : قولهم : خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب ، كالبطيخ والقثاء ، والقضم للصلب اليابس ، نحو : قضمت الدابة شعيرها ، ومنها : النضح والنضج ، والقد طولا والقط عرضا ... [1] .

وثم أمثلة كثيرة احتواها معجم العربية إذا كانت الطبيعة أمها فإنها هى الأخرى أصبحت أمهات لموضوعات فى العربية عقيب ذلك .

ولنختر بعض الأمثلة من ذلك ، حتى إذا استبان منها أن العربية لغة ولود لن يجف جناها أو يتوقف مداها ، استبان لنا أيضا برهان ثاقب على نقاء فطرة العربى قديما ، إذ أدرك بلا تكلف طبيعة لغته ، وعرف لأول وهلة أنها لغة ولود .

فعن أوضح مصوتات الطبيعة قال الحاكى العربى : " صات أو صاء " لفظة لمجرد الحكاية لا توصف بأنها اسم أو فعل [2] ، غير أنها صدرت بأقوى حرف دال على التصويت وهو " الصاد " ثم صارت تلك اللفظة الطبيعية أما رءوما لكل – أو على الأصح – لأكثر الألفاظ التى وضعت بعد ذلك تحتوى على صوت ، أو لها نصيب من هذا المعنى ، واخترت " صات أو صاء " لأنها فى رأيي الأصل المجرد الذى لا يدل على شئ زائد عن الصوت .

---

(1) الخصائص ١٥٢/٢ ، وما بعدها – ولم يكن ابن جنى مغاليا فيما ذكر مما يتصل بهذا الموضوع – كما رأى بعض الباحثين استنادا إلى ما ذكره علماء الغرب عن موضوع الربط بعض الألفاظ ومعانيها ، فليست العربية هى الإنجليزية أو الفرنسية حتى يتشابهن فى هذا الموضع بل أن يتطابقن .

(2) هذا بناء على رأيي الذى زعمت وهو : أن اللغة التى سجلت بالكلمة أو باللفظة ذات المقطع الواحد ، أحاديا أو ثنائيا أو ثلاثيا ، وكلما مرت عليها تجارب تكررت المقاطع وتجاورت ، وكان هذا المقطع فى تصورى مقطعا مقفلا أو مفتوحا أحيانا ، لأنه أنسب المقاطع للبداءة اللغوية ؛ لأن الناطق حينئذ كان يتهجى ما فى الطبيعة .

فهل لنا أن نرى أن هذه اللفظة الطبيعية هى أم الألفاظ الآتية :

صهل ، صحل ، صل ، صر ، صاح ، صرخ ، صدح ، صدع ، صقع ، صفق ، صخب ، صلق ، صعق ، صدم ، صدى ؟

وهل لنا أن نرى أن العبقرية العربية راقبت المعنى السلبى للصوت فكانت لفظة الصمت ؟ كما أنها راعت انعدام المعنى لدى بعض السامعين فولدت لفظة الصمم ؟ كما لمحت خلو المكان من محدثاته فكانت صفر ؟ وأدركت نفوذ الصوت إلى الرأس بحاسة الصماخ ؟ .

أقول : لنا أن نرى ذلك فالعلاقة واضحة بين هذه الألفاظ الموضوعة واللفظ المجتث من الطبيعة ، كما جاءت الشواهد الشعرية والنثرية تحمل هذه الدلالة الطبيعية إلى جانب ما حملته من دلالة وضعية اقتضاها التفريع على أصل البناء .

فمن الشواهد لذلك قول الشاعر : –

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع

كان الصراخ له قرع الظنابيب

يقول : إذا أتانا مستغيث كانت إغاثته الجد فى نصرته ..... [1] .

فالدلالة الطبيعية التى هى مطلق الصوت موجودة إلى جانب الدلالة الوضعية التى هى طلب النصرة فى كلمتى صارخ وصراخ .

---

(1) انظر الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ١ / ٣ ، وقد استعير الصارخ للديك ، ففى الحديث : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل إذا سمع صوت الصارخ – يعنى الديك ، انظر صحيح مسلم بشرح النووى ٦ / ٢٣ .

وفى القرآن الكريم يقول الله سبحانه حكاية عن الكفار المحبوسين فى جهنم : (وهم يصطرخون فيها) [1] ، قال الإمام " ابن كثير " : أى ينادون فيها يجأرن إلى الله عز وجل بأصواتهم [2] .

ومن باب الاستطراد لأدنى مناسبة أن نخالف صاحب القاموس الذى رأى أن الصنج – وهو شئ يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، وآلة بأوتار يضرب بها – معرب [3] .

نخالف هذا إلى ما ذكره صاحب لسان العرب عن " الصنج العربى " بأنه الذى يكون فى الدفوف ونحوه – عربى ، بخلاف الصنج ذى الأوتار ، قال : دخيل معرب تختص به العجم ، وقد تكلمت به العرب ، قال الأعشى [4] :

ومستجيبا تخال الصنج يسمعه

إذا ترجع فيه القينة الفضل

ورغم أننا خالفنا إلى رأيه وذلك لأمر يسير وهو وجود الحرف الصفيرى – الصاد – فى مستهل اللفظ ، فيكون بذلك متفقا مع بقية الألفاظ المصوتة التى ذكرها آنفا ، فما الذى يمنع أن يكون عربيا كغيره ؟ خاصة وأن شاعرا كالأعشى قد ذكر العلماء أنه سمى صناجة العرب لجودة شعره [5] ، فدل ذلك على شيوع اللفظ بين المسمين .

---

(1) سورة فاطر آية : ٣٧ .

(2) انظر تفسير ابن كثير ٣ / ٥٨٨ ، وقد دخلت كلمة " صاروخ " إلى اللغة عن طريق مجمع اللغة العربية ، انظر المعجم الوسيط ١ / ٥١٢ .

(3) انظر ترتيب القاموس المحيط . للأستاذ الطاهر الزاوى ٢ / ٨٥٧ .

(4) انظر لسان العرب لابن منظور ٤ / ٢٥٠٦ وما بعدها .

(5) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ، ط . دار المعارف .

أقول : رغم أننا خالفنا إلى رأى " ابن منظور " إلا أن ما ذكره أو نفاه يعوزه الدقة فى التعبير ، فهل إذا نظرنا إلى هذه الأدلة دفا كـــانت عربيـــة ؟ ، وإذا نظرنا إليها ذات أوتار كانت دخيلة معربة ؟

أم كان الأصح أن يقال بأن اللفظة ذاتها عربية ، ولكن هيئة الآلة عنـــد العرب تخالف هيئتها عند العجم ؟ خاصة وأن هذا مما لم تختص به العجـــم دون غيرهم ؟

ومن الألفاظ التى تمت بسبب قوى إلى هذا الأصل ونحب ذكرها : –

صخ ، الذى جاء منه " الصاخة " : وهى الصيحة التى تكـــون عنـــها القيامة كما ذكر الإمام " القرطبى " [1] ، والريح الصر ، والصرصر شـــديدة الصوت [2] ، ومن الصر أخذ صريرا الجندب ، وصر الباب يصر ، وكل صوت شبه ذلك فهو صرير إذا امتد [3] ، ومن صل أخذ الصلصال ، وهـــو الطـــين اليابس الذى يصل من يبسه أو يصوت [4] ، كما نتجت " صه " التى يؤمر بهـــا للصموت والسكوت هذا ولست أرى أن كل لفظ حل به صـــدرا الصـــوت الصفيرى – الصاد – هو مأخوذ من ذلك الأصل المجرد الدال على الصـــوت مثل تلك الطائفة من الألفاظ التى ذكرت وشهدت دلالتها أنها منه بيقين ، كمـا لن أنفى أن تكون بعيدة الصلة به ، إذ ربما كانت علاقة ما بينها وبـــين ذلـــك الأصل لمحها بناة اللغة فى زمنهم السحيق العميق وخفيت علينا نحـــن هـــذه العلاقة ، وإنى لمع العلامة " ابن جنى " فيما افترضه بأن تكون لهذه اللغة أصـــولا

---

(1) انظر تفسير القرطبى ١٠ / ٧٠١ ، ط . الريان .

(2) المرجع السابق ١٠ / ٦٧٣٨ .

(3) انظر لسان العرب لابن منظور ٤ / ٢٤٨٦ .

(4) المرجع السابق ٤ / ٢٤٢٩ .

وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا [كما قال سيبويه : أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر] [1] .

على أننا إذا اقتبسنا طريقة " ابن جنى " [فى قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف لا بالإقدام والتعجرف] [2] ، انقادت لنا بعض الألفاظ ولمحنا دلالة الأصل مطلة ببعض وجهها من مرآة هذه الألفاظ التى يظنها الرائى لأول وهلة بعيدة دلالتها عن هذا الأصل الأول .

فعلى سبيل المثال : صبأ ، بمعنى خرج من دين إلى دين ، ولا يكون ذلك إلا بصوت مسموع للكافة ، وصب الماء ، والانصباب يحدث صوتا وحركة ، والصباح تصحو عنده النيام وتظهر جلبتهم وصياحهم ، والصحيح أجهر صوتا من المريض والصادق أوضح حجة من الكاذب ، وقد يكون الصبر والصوم فيهما معنى الصمت ، أى المعنى السلبى للصوت [3] والصد بمعنى أعرض منه التصدية بمعنى التصفيق ، ولا يظنن ظان أن ما ذكرت من ذلك انطلقت دلالته من حرف هجائى واحد هو " الصاد " كلا ، إلا أنه – وهذا واضح كما ذكرت من قبل – أقوى حروف المقطع الذى حقق أصالة المبنى ، وظل هو كذلك فى الألفاظ التى اقتضاها تفريعات المعنى ، كما أنه رأس المقطع .

---

(1) الخصائص للعلامة ابن جنى ٢ / ١٦٤ .

(2) انظر المرجع السابق ٢ / ٨٨ .

(3) لقد جاء فى القرآن الصوم بمعنى الصمت فى سورة مريم آية : ٢٦ (فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا) كما فى القرآن فى مواضع عدة أتى الصبر يشم فيه معنى الصمت – فى سورة المزمل آية : ١٠ (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) والمعنى واضح فيه من معنى الصمت إزاء ما يفترى الكاذبون .

وهذا الذى ذكرت أشبه بمنحنى " ابن جنى " – مع الفرق الواضح بين المنحنيين – حين ركز الدلالة على " الفاء " إذا ما زجت " الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون " على التقديم والتأخير " ، فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ، وذكر من ذلك : الدالف ، والتالف ، والفرد ، والفتور ، والرديف والطفل والفتر [1] .

ولنا أن نصف ابن جنى من خلال هذا المنحنى بالتريث والدقة فقد حدد دلالة معينة بحرف معين ممتزج بحروف معينة ، ولم يطلق عنان هذا المنحى ، لأن الحروف المفردة لن تكون بحال أمهات للمعانى المتفرعة ، فالأمهات تكون – أو يجب أن تكون – ألفاظا هى أصول مجردة اتكأت الدلالة فى كل أصل منها على صوت غالبا أو صوتين أحيانا .

فما ذكره العلامة ابن جنى مفردات من فصائل لفظية جمعتها الصدفة المتوقعة حول معنى معين ، ذلك لأن ما فى اللغة مثل ما فى البشر ، قد يقع التشابه بين أفرادها مهما كانوا من فصائل أو عائلات مختلفة ، دون أن يأخذ هذا التشابه صفة الاطراد .

فما رآه الشاعر الخورى – كما ذكر الأستاذ العقاد عنه [2] – من اطراد دلالة حرف الفاء على الإبانة والوضوح ، وحرف الصاد على كل مكرهة ، وحرف الحاء على السعة ، ربما كان ذلك ضربا من أخيلة الشعراء ، ولذا فقد استدرك " الأستاذ العقاد " عليه بقوله " الحاء حقا من الحروف التى تصور معنى السعة بلفظها ووقعها فى السمع ، ولكن على حسب موضعها من

---

(1) انظر الخصائص لابن جنى ٢ / ١٦٨ .

(2) انظر أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب للأستاذ العقاد ص ٤٣ .

الكلمة ومصاحبة ذلك الموضع للدلالة الصوتية ، وليست دلالتها هذه مصاحبة للفظها حيث كانت من أوائل الكلمات أو أواسطها [1] .

ونحن نعلم دور الأصوات حقا وأثرها فى دلالات الألفـــاظ ، ولكـــن بمراعاة النماذج التى أشار إليها العلامة " ابن جنى " ، وعلى حســـب موضـــع الصوت من الكلمة ومصاحبة ذلك الموضع للدلالة الصوتية كما ذكر الأســـتاذ العقاد .

ولكن الذى لا نعلمه وليس بمقدور أحد أن يعلمـــه مـــا رآه الأســـتاذ "العلايلى" من أن اللغات مرت بثلاثة أدوار أولها :

ذو المقطع البسيط ، وهو الدور الذى ولد المقاطع الأحادية التى هـــى الجدول الهجائى ، فكان كل صوت يدل دلالة بعينها ، وذكر أنها أصوات غـــير متشكلة أى لم تنطبع بطابع خاص يميزها بل كانت جاريـــة مجـــرى الأصـــوات الاضطرارية ، ثم قرر أن من الممكن جدا تعيين دلالات هذه الحروف بأصواتهـــا حين كانت لغة على شئ من الافتراض المقلوب وسبيل هذه التعيـــين المعـــلات مطلقا وبالأخص منها اللفيف فى العربية [2] .

فهذا التطور كما رأى الباحثون منطقى بالدرجة الأولى ، فهو يسير مـــع الإنسان منذ بدأ – افتراضا – يتعرف إلى اللغة ، ويرسم له خط سيره أشبه شئ بالصراط المستقيم .. وهل نتصور أن العربية فى مراحلهـــا الأولى كانت تطلـــق المقطع (جـــ) مثلا على كل مرتفع كالجبل والجمل والجـــرو والجعـــل ؟...

---

(1) المرجع السابق ص ٤٥ .

(2) انظر له مقدمة لدرس لغة العرب ، ص ٢٣ ، وما بعدها ، وانظر فى التطور الغوى / د . عبد الصبـــور شاهين ص ٨٣ .

إن أمرا من هذا القبيل لا يمكن أن يطرد فى دلالات الحرف الواحد على مسمياته القديمة الكثيرة ، كما أنه لا يطرد فى تخصيص كل حرف بمعنى كلى [1] .

ولذلك فإن علماءنا وقد لاحظوا نماذج من مناسبة حروف العربية التعبيرية الموحية ، لم يروا ذلك للحرف أو للصوت منفردا على حدة وإنما رأوا ذلك له وهو متركب مع حروف أو أصوات أخرى فى بنية معينة ، تصدرها أو توسطها أو ذيلها على وفق ما ذكر العلامة " ابن جنى " حين أكد " أن فى تقديم ما يضاهى أول الحدث وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسط ما يضاهى أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب [2] .

ومن ثم فقد ينفعنا الالتفات إلى دلالة الحكاية الصوتية - كما ذهب الأستاذ العقاد - للتفرقة بين حروف الهجاء فى خصائصها المعنوية ، إذ ليست كل الحروف سواء فى حكاية الأصوات من أصوات الأحياء أو أصوات الجمادات ، وإنما يقع بينها الاختلاف بمقدار صلاحيتها لحكاية الأصوات المسموعة ، فلا يلزم من مصاحبة بعض المعانى لبعض الحروف أن يكون ذلك شرطا ملازما لجميع حروف الهجاء [3] .

وإذا شفعنا المثال السابق المجتث عن أوضح مصوتات الطبيعة ، - صات أو صاء - بمثال آخر مثله ، استبان لنا صلاحية بعض الأصوات - وهى أيضا مركبة مع غيرها - لحكاية الأصوات المسموعة ، وليكن هذا المثال هو المقطع " جر " ولننظر إليه أولا من نافذة " ابن جنى " الذى رآه بكلا صوتيه

---

(1) د . عبد الصبور شاهين فى التطور اللغوى ص ٨٦ ، وما بعدها .

(2) الخصائص ٢ / ١٥٧ ، وما بعدها .

(3) انظر أشتات مجتمعات ص ٤٦ .

– الجيم والراء – أدل شئ صالح لحكاية هذا الصوت المسموع ، إذ قـــال : قدموا الجيم لأنها حرف شديد ، وأول الجر بمشقة على الجار والمجرور جميعـد، ثم عقبوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر ، وكرروها مع ذلك فى نفسها ، وذلـــك لأن الشئ إذا جر على الأرض فى غالب الأمر اهتز عليها ، واضطراب صـاعدا عنها ونازلا إليها ، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلـق ، فكـانت الراء – لما فيها من التكرير – أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها [1] .

ويلاحظ أننا لم ننح فى هذا المثال وما سبقه منحى القائلين بالثنائية حيث إننا حددنا الأمهات بالنظر إلى المقطع الذى تشكل منه لأول الأمـــر الألفـاظ الطبيعية ، فكان منها أصل المبنى ، ثم تشكل منه لآخر الأمر الألفاظ الوضعيـــة حيث اقتضتها تفريعات المعنى ، ومرتكزنا فى هذا المنحى هو الدلالة الجامعة مـن قرب أو من بعد بين هذا الأصل وتلك الفروع ، وسواء فى ذلك تكرر المقطـــع – وهو ثنائى – مع ما ثلثه ، أو تكرر منه جزؤه الأول ، – بالنظر إلى أن الجـزء الأول هو رأس المقطع [2] – فثناه أو ثلثه مقاطع أخرى ، ولا ننتظر حينئذ مـــع توالد الفروع أن يكون المعنى فيها بوضوحه فى أمها ، فالتفريع لأدنى ملابســـة وارد فى اللغة كما هو حاصل فى غيرها ، فالمستولدون للغة كثيرون وأصحـــاب نظرات ولهجات عديدة ، والمنطقية فى البناء اللغوى غـــير واردة ، لأن البنـــاء اللفظى فى العربية – كما ذكرت فى بحث آخر – لم يكن على ضوء المنطق الذى يسوق المقدمات بين يدى النتيجة ، بل على ضوء الذوق الذى يرتجل بملحـظ فى المسمى ، ويوصف الارتجال هنا بأنه ارتجال من يعقل حـــتى لا يتوهـــم واهـــم

---

(1) الخصائص ٢ / ١٦٤ .

(2) إذ تبقى ملامح الشئ ما بقى رأسه .

أو يظن ظان أن بناء العربية قد تم بعيدا عن المنطقية بالمرة ، بل تم على منطقية تابعة لذوق حثيث للأصوات التى اختيرت فى البناء على جرس الحدث المسموع أو الملحوظ [1] .

فأى منطقية خالصة نراها فى مسمى واحد له عدة أسماء عرفت ورويت ؟ ذكر صاحب المخصص عن أبى حنيفة " أن يقال للنخلة الطويلة بلغة أهل المدينة : رقلة ، وفى لغة أهل نجد : عيدانه ، وفى لغة أهل عمان : عوانة ، وفى لغة أهل البحرين : صادية ، وفى لغة أهل طئ : طرق والجمع طروق " [2] .

وذكر عن أبى عبيد : أن العامة يرون الصامت الدراهم والدنانير ، وأما أهل الحجاز يسمون الدراهم والدنانير الناض [3] .

ولكن ثم منطقية جاءت بعد ما بنيت اللغة على ضوء الذوق أولا واتضح ذلك فى أعظم باب للتوالد اللغوى فى العربية ، وهو باب الاشتقاق بصفة عامة – وسوف نوضحه فى حينه – إذ يشتق للمعانى الفرعية الملتقية مع معنى البناء الأصلى دون اللجوء إلى استصدار أبنية جديدة ، قال ابن دريد : مرق السهم من الرمية يمرق مرقا ومروقا : خرج ، وبذلك سميت الخوارج مارقة ، ومرق اللحم أحسب اشتقاقه منه لمروقه من اللحم [4] .

وقال : الغلوة بالسهم : أن يرمى به حيثما بلغ وقد غلا ، وهو من الغلو أى الارتفاع فى الشئ ومجاوزة الحد فيه ، وكل مرتفع متغال ، ومنه اشتقاق الشئ الغالى ، لأنه قد ارتفع عن حدود الثمن [5] .

---

(1) انظر بحثنا : الألفاظ الشعرية وروافد بناء الكلم فى العربية الفصحى ، ص ١١٩ .

(2) المخصص لابن سيده الأندلسى ١١ / ١١ .

(3) المرجع السابق ٢٧/١٢ ، وما بعدها .

(4) السابق ٦ / ٦٤ .

(5) السابق ٦ / ٦٥ .

والسوق مشتقة من سوق الناس بضائعهم [1] .

فهذه التعليلات المذكورة فيما أورد " ابن دريد " هى نهج منطقى ولكن كما نرى للمأخوذ له لا المأخوذ منه ، فالمأخوذ منه أعنى الطبيعـــى لم يصـــدر إلا عن ذوق لقوم هم العرب الخلص ، الذين وصفهم أحد علماء الغرب ، وهو " يوهان فك " بقوله : هم ذو ذوق مرهف وإحساس ناضج كل النضج بجمـــل اللفظ المنطوق ، سواء فى الخطاب المألوف ، أم فى النثر المسجوع ، أم فى الكلام المنظوم [2] .

والمأخوذ له أعنى الوضعى صدر عنهم أيضا وللمنطقية دور أو أثـــر فى أشكاله ولكنها مع ذلك تابعة لا متبوعة ، فالذوق هو الأساس فى أصل البنـــاء وفروعه . فنأت إلى : " ابن فارس " وهو بصدد مادة " جر " قال : الجيم والراء أصل واحد ، وهو مد الشئ وسحبه ، يقال : جررت الحبل وغيره أجره جـوا ، قال لقيط [3] : –

جررت لها بيننا حبل الشموس فلا ياسا مبينا ذرى منها ولا طبعا

فهذا هو الأصل الذى جاء وفق الذوق الذى شرحه لنا " ابن جـــنى " آنفا ، وهذه عادة " ابن فارس " فى معجمه (مقاييس اللغة) أن يذكر الأصـــل – ثنائيا ثم ثلاثيا – له دلالة واحدة فى الأغلب ، وأحيانا اثنتان وقليلا ثـــلاث ، ثم يفرع من الأصل نفسه ، أو يذكر ما تولد منه ذاته وقد حمل من معنى الأصـل معللا ذلك بالسبب الذى وصله به ، فيقول : الجرار : الجيش العظيم ، لأنه يجر

---

(1) السابق ١٢ / ٢٥٥ .

(2) انظر العربية : دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب يوهان فك ص ٢٤٣ .

(3) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١ / ٤١٠ ، وما بعدها .

أتباعه وينجر ، والجريرة ، ما يجره – وكان الأولى أن يقول مـــا يكتســـبه – الإنسان من ذنب ، لأنه شئ يجره إلى نفسه ..... ، والجرة من الفخار ، لأنها تجر للاستقاء أبدا .. ، وأما الجرجرة : وهو الصوت الذى يردده البعير فى حنجرتـــه فمن الباب أيضا ، لأنه صوت يجر جرا ، لكنه لما تكرر قيل جرجر ، كما يقال : صل وصلصل ، قال الأغلب : –

جرجر فى حنجرة كالحب وهامة كالرجل المنكب

ومن ذلك الحديث : " الذى يشرب فى آنية الفضة فإنما يجرجر فى جوفه نار جهنم " [1] .

ولم يتسن " لابن فارس " أن يصل بعد ذلك بين هذا الأصل وبين فروع نعلم نحن أنها مما تولد من هذا الأصل ، واستقصتها المعاجم أيضا على أنها أبنيـــة مستقلة فلم تنصب لها أما ، ولم تفرع لها بنين وبنات رغم ما عرف منذ القـــدم لدى العلماء " أن كلام العرب بعضه من بعض وأنه قد يكون الأصل واحـــدا ثم يخالف بالأبنية فيلزم كل بناء ضربا من ذلك الجنس [2] .

أفلا يحق لنا أن نرى أن لفظة جرى فرع لجر ؟ وتولد منها هى بعد ذلك الجارية ، وهى السفينة ، وكذلك الشمس ، والجارية من النساء من ذلك أيضـــا لأنها تستجرى فى الخدمة [3] .

ومنه أيضا " جرد " بمعنى أزال ما على الشئ ، الذى جاء منه الجـــراد والجريد والجارود [4] .

---

(1) المرجع السابق .

(2) انظر المخصص / لابن سيده ٣ / ١٣٣ .

(3) انظر معجم المقاييس لابن فارس ١ / ٤٨٨ .

(4) السابق ١ / ٤٥٢ ، والجارود : المشئوم ، وسنة جارودة : أى محل .

وجرم ، بمعنى القطع ، منه الجريمة بزنة الجريرة مولدة حديثا [1] .

وجرف الشئ : ذهب به كله أو جله ، وتولد منه حديثا " الجـاروف " وهى أداة الجرف تكون مع الكناسين والفعلة [2] .

كما نلحظ – على قرب أو بعد – معنى " الجر " فى جذب ، ومنـه : ناقة جاذب ، إذا قل لبنها والجمع جواذب ، لأنه إذا قل لبنها فكأنها جذبتـه – أى فصيلها – إلى نفسها [3] ، ومنه جاء هـذا المصطلـح العلمـى الحديـث " الجاذبية " [4] .

ولا أدرى هل اصطلح النحاة على " الجزم " كعلامة للفعل المضـارع ، فى مقابل اصطلاحهم " للجر " كعلامة للاسم ، خاصـة وأن معـنى الجـزم : القطع ؟ [5] .

ومن ذلك جلب : بمعنى أحدث جلبة ، والشئ ساقة مـن موضـع إلى آخر ، فهو جالب وجلاب ، وفى المثل : رب أمنية جلبت منية [6] .

وجال ، ومنه الجولان فى الحرب ، والجول ، والجول والجولان والجيلان (الأخيرة عن اللحيانى) التراب والحصى الذى تجول به الريح على وجه الأرض [7] .

ولعل فى لفظة (جرس) دليلا على فطنة بناة هذه اللغة ، لأن الصـوت هنا نشأ عن جر شئ كالجمل ونحوه ، فأتوا بالصوت الصفيرى المعبر فى بعـض

---

(1) انظر معجم الوسيط ١ / ١١٨ .

(2) السابق .

(3) المقاييس ١ / ٤٤٠ .

(4) انظر المعجم الوسيط ١ / ١١٢ .

(5) لم أجد عند الإمام " سيبويه " إلا قوله : وليس فى الأفعال المضارعة جر ، كما أنه ليـس فى الأسمـاء جـزم / انظر الكتاب ١ / ١٤ ، تحقيق : هارون .

(6) المعجم الوسيط ١ / ١٢٨ .

(7) لسان العرب لابن منظور ١ / ٧٣٠ ، ط دار المعارف .

حالاته عن الصوت تابعا ، أى تاليا لجر ، ولذلك فسره " ابن سيده " بأنه الحركة والصوت من كل ذى صوت [1] .

والجرس ، فسره المعجم الوسيط بأنه الحركة والصوت ، وأداة من نحاس أو نحوه مجوفة إذا حركت تتذبذب فيها قطعة صغيرة صلبة فيسمع صوتها (أجراس) [2] .

و لاننسى ما اختاره المجمع لحركة انحسار ماء البحر عن الشاطئ بفعل الجاذبية فأطلق عليها الجزر [3] .

وإن قال قائل : فماذا ترى فى " سحب " ؟ ففيها معنى " جر " وليس فيها صوت واحد منها ؟ وقد قال صاحب العين : السحب : الجر على الأرض سحبته اسحبه سحبا فانسحب ، ومنه اشتقاق السحاب لانسحابه فى الهواء [4] .

أقول : هذا دليل آخر من أدلة كثيرة على فطنة بناة هذه اللغة وعلى ذوقهم المتطور ، فقد فرقوا فيما ولدوه فى اللغة بين ما يحتاج إلى مشقة وجهد ، وبين ما يتأتى بسهولة ويسر ، وهذا شأنهم دائما فى كل ما ولدوه فى اللغة من ألفاظ [5] ، ولكن لم يتم لهم ذلك فى زمن واحد ، فالأصح فى رأيي أن التوالد اللغوى متعاقب أو مترادف بحيث لم تخل فترة من تاريخ اللغة إلا فيها مواليد جدد كثيرة ووفيات لما أصابه الهرم من ألفاظها ، وما زال ذلك حادثا فى اللغة

---

(1) السابق ١ / ٥٩٧ .

(2) الوسيط ١ / ١١٧ .

(3) السابق ١ / ١٢٠ .

(4) انظر المخصص لابن سيده .

(5) فلنر إلى الخليل بن أحمد وهو ينعت بعض الأصوات بقوله : لولا بحة فى الحاء لأشبهت العين ، ولولا هتة أو همهة فى الهاء لأشبهت الحاء ، ثم وصف الكاف بأنها أرفع من القاف ، والدال بأنها لانت عن صلابة الطاء وكزازتها وارتفعت عن خفوت التاء – انظر معجم العين ١ / ٦٤ ، تحقيق د / عبد الله درويش ، وهذا الوصف دال بلا ريب على أنهم يختارون أنسب الأصوات للمعانى ، فذوق الحروف كان من الدقة لديهم بمكان .

إلى الآن . بيد أننى أقرر فى اطمئنان أن أمهات الألفاظ الأولى ، كانت تلـــك الألفاظ الطبيعية التى كانت بناتها (أو جيلها الأول) أقوى دلالـــة علـــى مـــا يشاهده الحس ، فكانت هى الأخرى (أو كان هذا الجيـــل الأول) أمـــهات لمدلولات تستشعرها النفس وهذا ما سوف أتحدث عنه بإيجار فى النقطة التالية .

ثانيا : الألفاظ الحسية

الألفاظ الحسية هى نتاج الألفاظ الطبيعية لا ريب [1] ، ثم إنها هى الأخرى أى الألفاظ الحسية حلقة ثانية من حلقات التوالد اللغوى فى العربية ، فقد جد فى اللغة – باتساع النشاط الإنسانى – ما نقل الألفاظ الحسية إلى مقام الأمومة لتكون للمعنويات مأما ، ولمنهج الإنسان الفكرى مصدرا . فحاجات الإنسان – كلما امتد به الزمن – تتعدد وتتجدد ، فقد سكن أولا الكهوف واتخذ من الجبال بيوتا ثم اهتدى بعد إلى تسوية الحجارة ليصنع بيته ، واهتداؤه إلى ذلك نتيجة فكر سبق بنايته وتقدم صناعته . وليس عجيبا أن أرى أن توالد المعنوى من المحسوس وتوالد المجازى من الحقيقى ما زالت فيه أنفاس التوالد الأول القائم على مراعاة الشبه والحكاية ، فخذ مثلا كلمة " الروح " ، فإن أصلها من نفس أصل لفظة الريح ، وهو الهواء ، ثم النفس الذى يردده الإنسان فى صدره شهيقا وزفيرا ، وقد سمى كل ما تحمله الريح ويمكن أن يشمه الإنسان عند التنفس : رائحة ، وسميت الراحة كذلك لأن المتعب أو المهموم المكروب تضيق أنفاسه ، فإذا استطاع أن يستنشق الهواء وأن يتنفس الصعداء صعد الهم مع هذا النفس من صدره فأحس بالراحة ، وهكذا يكون قد استراح ، ولما كانت الريح لا تلاحظ فى هبوبها بقدر ما تلاحظ فى الأماكن الشاسعة المنبسطة سمى كل شئ واسع فيها بعد أروح ، وسميت راحة اليد لاتساعها وانبساطها ، ولما كان تردد الريح فى صدر الإنسان هو أوضح العلامات على أنه حى لم يمت

---

(1) هذا باستثناء بعض الألفاظ فى اللغة التى لم تسمع إلا من فرد واحد مثل : " القنسرى " – الكبير المسن " – قال أبو على الفارسى : لم أسمع بالقنسرى إلا فى شعر الحجاج : (أطربا وأنت قنسرى ؟) انظر المخصص ١ / ٤٥ ومثل : رنوناة – الديدبون ، ماوية – البابوس ... إلخ وهى ألفاظ قال عنها الأصمعى : لا أعلم أحدا أتى بهذا إلا ابن أحمر الباهلى – انظر الخصائص / لابن جنى ٢ / ٢١ وما بعدها .

اشتق من ذلك لفظ الروح بمعنى سر الحياة المجرد المبهم فى الكـــائن الحـــى ، ولاشتقاق الروح من الريح جاء لفظها فى القرآن الكريم مستعملا مع الفعل نفخ فى قوله تعالى (ونفخنا فيه من روحنا) [1] .

وصدق " أبو حيان التوحيدى " فى قوله : والإحساسات ظلال العقـول تحكيها بالتقريب والتبعيد مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة [2] .

فألق نظرة خاطفة إلى معجم من معاجم الألفاظ أو المعانى واستقص فيـه مادة من مواده ، فإنك واجد أن المادة فيه دلت على محسوس فى بعض صورها ، ودلت على معنوى فى بعضها الآخر ، فخذ على سبيل المثال مادة (بتر) قـــال صاحب اللسان : البتر : استئصال الشئ قطعا ، والبتر : المقطوع الذنب مـــن أى موضع كان من جميع الدواب ، وخطبة بتراء : إذا لم يذكر الله تعالى فيـــها ولا صلى على النبى صلى الله عليه وسلم وفى الحديث : " كـــل أمـــر ذى بـــال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو ابتر " ، والأبتر : الذى لا عقب له ، وبه فسر قولـــه تعالى : (إن شانئك هو الأبتر) [3] .

وهكذا أغلب مواد المعجم أو الجمهور الأعظم من مواده ، تذكر لكـل مادة ما تدل عليه من محسات ومعنويات ، بيد أن مؤلف المعجم لم يبال أحيانـــا كثيرة بأيهما بدأ ، وكان يجب أن يبدأ بالمحسوس ويثنى بالمعنوى ، لأن المعنـــوى مولد عن المحسوس حتما ، كما أن المحسوس حتما مولد عن الألفاظ الطبيعيـــة غالبا ، لكننا نرى كثيرا صاحب المخصص " العلامة ابن سيده " يتبـــع هـــذا

---

(1) انظر اللسان والإنسان : مدخل إلى معرفة اللغة – د . حسن ظاظا ص ٨٤ ، وما بعدها .

(2) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١ / ١١١٠ .

(3) لسان العرب لابن منظور ١ / ٢٠٥ باختصار .

الترتيب فيذكر المدلول الحسى للمادة المعجمية ثم يعقبها بذكر المولد المعنوى ، نهج ابن دريد فى الاشتقاق ، كقوله عن الجيش قال : " ابن دريد " : اشـــتقاقه من جاشت القدر جيشا : غلت [1] .

وقوله عن : الخبز ، قال ابن دريد : هو ضرب البعير الأرض بيديـــه ، ومنه اشتقاق الخبز [2] .

ويظهر أن " ابن سيده " كان ممن عنى بالبحث عن مرجع المواد اللغويـة الدالة على المعنوى ، فهو يقول : لا أعرف من أى شئ اشتق المخلب ولا مـــا فعله ، وإنما قلت ذلك لأن المفعل لا يكون إلا مشتقا إما اسم مفعـــول وإمـــا مصدر كما أن مفعلا كذلك ، إلا ما حكاه سيبويه من المخدع لأنه ليس علـــى الفعل ، والذى عندى فى المخلب أنه من الخلب – وهو الليف – والمخلب : هو الكثير الوشى ، وأنشد : –

وغيث بدكداك يزين وهاده

نبات كوشى العبقرى المخلب

أى الكثير الألوان [3] .

ومن ذلك محفد الثوب – وشيه – قال " على " ليس المحفد على الفعل ، لأن فعل (ح ف د) – إنما هو حفد يحفد إذا خدم ، وحفد البعـــير يحفـــد إذا قرمط عدوه ، ولا تعلق للوشى بهذا ، فإذا كان كذلك فإنما المحفد اسم لا فـاعل له ، كما ذهب إليه " سيبويه " فى المنكب [4] .

---

(1) المخصص لابن سيده ٦ / ٢٠٠ .

(2) المرجع السابق ٧ / ١١٥ .

(3) السابق ٤ / ٦٦ وما بعدها .

(4) السابق .

وما جاء عن بعض علمائنا ما يفهم منه أخذ المحسوس من المعنوى فهذا عكس المعروف والمألوف ، وقد يكون ذلك التباسا أو عفوا ، أو كان ذلك خلاف الأصل ، إذ الأصل أخذ المعنوى من المحسوس .

فما يروى عنهم أن " أبا عمرو بن العلاء " سأل أعرابيا : مما اشتق الخيل ؟ فأجاب الأعرابى بما يفهم منه أن الخيل قد اتخذت لفظها من الخيلاء ، وقد ذهب إلى هذا "أبو عمرو" بكلمته المشهورة : ألا تراه يمشى العرضنة ؟ [1] .

فاعتقد بهذا التعليق أن المحسوس مشتق من المعنوى ، وهذا بعيد .

والأصل أن يكون إدغام الحروف مأخوذ - كما ذكر الأعرابى من أدغمت الفرس - أدخلته فيه - وأدغمت اللجام فى فيه كذلك ، ولن يكون العكس أى إدغام الفرس اللجام من إدغام الحروف ، ولذا يذكر ذلك " صاحب المخصص " بصيغة التمريض ، وهو قوله : وقيل : " بل اشتق هذا من إدغام الحروف [2] .

فهو قول - بإيحاء هذه الصيغة - لا يعرف قائله ، ذلك لأنه لن يعقل أبدا أن يكون إدغام الحروف - وهو مصطلح علمى متأخر نسبيا - سابق لإدغام الفرس اللجام وهو أمر معلوم قبل الاصطلاح ، ولذا نرى " صاحب العين " يقول : الهمز - العصر - وقد همزت رأسه وهمزت الجوزة بيدى أهمزها همزا ، وأنشد :

ومن همزنا رأسه تهشما

ثم قال : وبه سميت الهمزة من الحروف ، لأنها تهمز فتهت فتنهمر عن مخرجها [3] .

---

(1) انظر المزهر للسيوطى ١ / ٣٥٣ .

(2) المخصص لابن سيده ٦ / ١٨٩ .

(3) المرجع السابق ١٣ / ٤٦ .

فهذا قول سديد لأن تسمية الهمزة كمصطلح دال على معنى الحـرف من حروف الأبجدية ، مستفاد من الهمز كدال حسى ، ولا يمكن العكس .

فالتسمية نفسها دالة على حدوث مسمى ، ومـن المفيـد للمجتمـع اللغوى – ويدل كذلك على عبقريتـه – أن يسـتأنس بـالموجودات ليسـم بواسطتها المسميات المحدثات ، وحينئذ تتحقق فائدتان : الأولى : قيـام دليـل عملى عل طواعية اللغة والمحافظة على أصولها ، والثانيـة : اختصـار الجـهد وتسهيل ضبط اللغة ، فلا غرو إذا أن توسم العربية – من بين اللغات – بأنها أم اللغات فى التشقيق والتوليد ، ويرى الباحثون فى هذا خاصيـة سـهلة تعـين الباحث على التمييز بين الأصيل والدخيل ، لأن الرجعة بالفروع المختلفـة إلى أصل واحد يوحى بالرابط المشترك بينها أمر فى العربية ذو بال ، يؤكد احتفـاظ هذه اللغة بأنسابها مثلما يحتفظ العرب بأنسابهم [1] .

وقد التمست لمن رأى من علمائنا أخذ المحسوس من المعنوى مخرجـا ، لأن أصعب الاشتقاق وأدقه – كما وضح ابن عصفور – فى أسماء الأجنـاس ، لأنها أسماء أول أوقعت على مسمياتها من غير أن تكون منقولة من شئ ، فـإن وجد منها ما يمكن اشتقاقه حمل على أنه مشتق ، إلا أن ذلك قليل فيها جـدا ، بل الأكثر فيها أن تكون غير مشتقة ، نحو : تراب وحجر ، وماء ، وغير ذلـك من أسماء الأجناس ، فمما يمكن أن يكون منها مشتقا " غراب " فإنه يمكـن أن يكون مأخوذا من الاغتراب فإن العرب تتشاءم منه وتزعـم أنـه دال علـى الافتراق ، وكذلك " جرادة " يمكن أن تكون مشتقة من الجرد ، لأن الجـرد واقع منها كثيرا [2] .

---

(1) انظر دراسات فى فقه اللغة ، د / صبحى الصالح ، ص ٣٣٥ .

(2) الممتع فى التصريف لابن عصفور ١ / ٤٨ ، وما بعدها .

هذا وإن كنت أرى أن أسماء الأجناس – وهى مـــن المحسوســـات – أخذت وتولدت من ألفاظ طبيعية حتما عرفنا منها ما عرفنا وجهلنا منـــها مـــا جهلنا ، وجهلنا إما لأن الأصل الطبيعى مات ، أو مجهول فظن العلماء عدمـــه ، مثل : ما روى فى صندل وصنادل – الشديد – قيل اشتقاقه من الصدل وهـــو فعل مات ، وقال قوم : ليس للصدل فى اللغة أصل [1] .

وإما أن باللغة أشياء كثيرة ترفض أصولها ويقتصر فى الاستعمال علـــى فروعها [2] .

أما جرادة التى رآها " ابن عصفور " من الجرد ، فقد رأينا قبلا أيضـــا من أين أخذت لفظة الجرد ؟ فهى بنت من بنات الجر (المصدر الطبيعى المعـــبر عن مد الشئ وسحبه) ، وأما لفظة غراب التى رآها " ابـــن عصفـــور " مـــن الاغتراب – لأن أصل الاشتقاق وجله إنما يكون من المصادر [3] – فهى مـــن حفدة " غب " وبنت من بنات " غرب " وكلمة الاغتراب ذاتها مـــن حيـــث القرابة اللغوية أخت شقيقة للغراب ، فقد تناسل من هذه المادة كما من غيرهـــا بنين وحفدة ، وفيما يتناسل من فروع شئ من معنى الأصل الأول حتى لو لم يبق منه إلا صوت واحد – هو رأس المقطع فى الأغلب كما وضحت من قبل – .

فدقق النظر – ومعذرة لهذا الاستطراد الاضطرارى – فى غبر وغبـــق وغبن ، وغرب وغرق وغسق وغشى وغفل وغفر وغلس وغلق وغمر وغـــاط وغار وغال وغاض [4] .

---

(1) انظر المخصص لابن سيده ٧ / ٦٦ .

(2) انظر سر صناعة الإعراب لابن جنى ١ / ٢٧٦ .

(3) الممتع فى التصريف لابن عصفور ١ / ٤٨ .

(4) قد نرى كلمات قد بدأت براس المقطع ويظهر من تفسيرها أنها بعيدة المعانى ، ولكن عند التأويل – كما ســـبق التوضيح – يمكن أن نتبين ولو بالتلميح والإشارة علاقة ما بينها وبين غيرها مما توافق معها فى رأس المقطـــع ، أو ربما لبعد العهد تلاشت هذه العلاقة فغابت عنا .

فالمعنى فى هذه الفصيلة يكاد يدور حول الاستتار والخفاء ، وكلما اقتربت الفروع من الأصل كان المعنى أوضح وأقرب والعكس صحيح ، حتى إذا استوضح شخص ما معنى : غيبة ، وغابة ، وغيابة ، وغمامة ، وغربيب ، وغيب ، لم يجد عناء فى ذلك ، وأدرك سريان الخفاء إليها من غاب أو غرب ، أو من إحدى بنات "غب" الحاملة من أسرار الطبيعة ما أدركه المؤلف القديم .

ونحن إذ ندقق النظر مرة أخرى فى طور الألفاظ الحسية وتوالد المعنوية منها نجد أنه أثرى طور مر باللغة فهو الطور الخصب الذى من خلاله أخذ التوالد فيه منحى جديدا ينم عن فكر أريب وعقل حصيف ، إذ كان هو طور التصريف والاشتقاق بكل ما يحمله التصريف والاشتقاق من معنى ، وذلك مما يقتضى حديثا خاصا موجزا : -

عن الاشتقاق : -

ذكرت من قبل أن الاشتقاق يعد أعظم باب للتوالد اللغوى فى العربية ، وإذا كان الاشتقاق من خصائص اللغات السامية - يقول الأستاذ العقاد : فإن العربية من بينها تكاد تنفرد بعموم الاشتقاق واطراده [1] .

بل إن رأى المستشرق " برجشتراسر " : أن الاشتقاق فى أكثر اللغات السامية أو قريب من الميت ، وأن العربية دامت تشتق الأسماء الجديدة الكثيرة على الأوزان المتنوعة [2] .

([1]) أشتات مجتمعات ص ١١٦ .

([2]) التطور النحوى ص ١٠١ .

ففى الاشتقاق تتجلى العلاقة النسبية والسببية بوضوح بين البناء الذى يعد الأصل المأخوذ منه – على اختلاف فيه بين العلماء إن كان هـو المصـدر أو الفعـل [1] – وبين الأبينة المتفرعة عنه للمعانى .

فإليك على سبيل المثال – حل ، فمنه حل الشئ حلالا : صار مباحـا ، وحلت المرأة : جاز تزوجها ، وحل الدين حلولا : وجب أداؤه ، وحل بالمكان : نزل به ، وأحل : خرج من إحرامه ، وحلل الشئ : رجعه إلى عناصره ، ومـن مطاوع حل : انحل ، واستحل الشئ : عده حلالا ، واحتل المكان : نزل بـه ، وأعطت حديثا معنى القهر والاستيلاء ، والإحليل : مخرج البول ، والحـلال : المباح ، والحلة : الثوب الجديد والحلول : اتحاد الجسمين ، والحليلة : الزوجـة ، والمحل – بفتح الحاء – مصدر ميمى – وبكسرها – المكان الذى يحـل فيـه ، والمحلة : منـزل القوم [2] .

ونحن نسمع الآن على ألسنة الإعلاميين : حلحلة القضية ، وهى لفظـة كما ترى معبرة ، وفى مجال آخر أدركتنا كلمة " العولمة " .

---

(1) انظر تفصيل ذلك فى " الإنصاف فى مسائل الخلاف " للأنبارى ١ / ٢٣٥ ، وقد رأى بعض الباحثين أن عبثـا ضائعا ما ذهب إليه الكوفيون من أن الفعل هو أصل الاشتقاق ، ولم ير أيضا ما ذهب إليه البصريـون مـن أن المصدر هو أصل المشتقات ، ورأى أن أسماء الأعيان – الجواهر – وليست المصادر – أسماء المعانى – هى أصـل المشتقات – انظر د / صبحى الصالح ، دراسات فى فقه اللغة ص ١٨١ ، وما بعدها .

ورؤيتى فى ذلك أنه ينبغى الفصل بين طورى الألفاظ الطبيعية والألفاظ الحسية ففـى طـور الألفـاظ الطبيعية أخذت أصواتها من المقطع الذى يعد الجوهر لهذه الألفاظ الطبيعية وفى طور الألفاظ الحسية أرى مـا رآه الكوفيون أن الفعل هو أصل المشتقات ، لأن الفعل حدث ، والمصدر اسم معنى ، والأحداث موجودة قبل الأسمـاء لا ريب . فهل يتصور المصدر قتل قبل أن يقع القتل ؟ فأيهما أولا يحدث فى الواقع ؟ .

(2) انظر المعجم الوسيط ١ / ١٩٣ وما بعدها . منقول باختصار شديد .

ففى هذا المثال – كما فى غيره وهو جم غفير فى العربية – بناء أصلى مجرد تولد منه للمعانى المتفرعة أبنية عدة ، مع احتفاظ كل فرع بنسبه إلى البناء الأول وما هو منه بسبب ما وسمه العلماء بالاشتقاق الكبير والأكبر والكبار [1] .

ومن ثم وجدنا سعة هذه الفصيلة الاشتقاقية ، حتى إنه لم يخرج عنها إلا ألفاظ معدودة عرفت فى اصطلاح اللغويين والنحاة بالجامدة [2] ، وما عداها يتهيأ للناظر أن يصل أو يلحق اللفظ بأصل من أصول هذه الفصيلة جمع بينها آصرة القرابة النسبية – كما وضح من الاشتقاق الأصغر أو آصرة القرابة السببية – كما هو واضح فى أنواع الاشتقاقات الأخرى – وذلك – على سبيل المثال أيضا – مثل " رأى " ، أخذ منها – على طريقة الاشتقاق الأصغر [3]

---

(1) الاشتقاق الكبير : هو ما عرف بالتقليبات ، مثل : ملك ، كمل ، كلم ، لكم ... بحيث يصل الفعل الثلاثى بالتقليبات إلى ست صور استعمل منها ما استعمل وأهمل ما أهمل .

والأكبر : وهو أخذ كلمة من أخرى بإبدال حرف أو أكثر من الحروف الأصلية وبين البدل والمبدل منه قرابة صوتية ، مثل : أز وهز ، وهتل وهتن ، ونعق ونهق ، ومرجع هذا الاشتقاق فى الأغلب إلى اللهجات .

والكبار : وهو المعروف بالنحت ، أى أخذ كلمة من كلمتين أو أكثر للاختصار فى الأعم ، كبسمل ، وحوقل ، حيعل ...

(2) الجامدة : وصف يطلق على الأسماء التى لم تؤخذ من غيرها والأفعال التى لا تتصرف ، وفى رأيى أن لها مرجعا أخذت منه وهو إما مات أو مجهول ، وذلك هو الأغلب ، وإما إنه رفض أصله واقتصر على استعمال فرعه ، وذلك قليل نادر .

(3) الاشتقاق الصغر هو : ما اتحد المشتق والمشتق منه فى ترتيب الحروف الأصلية وفى المعنى – كاشتقاق فاهم ومفهوم وتفاهم .. من فهم .

ويطلق عليه بعض العلماء " الاشتقاق العام " وهو إطلاق غير مفيد ، وإنما المفيد أن يكون الوصف بالعام شاملا لكل أنواع الاشتقاقات المأثورة ، حتى إذا ما احتيج فى عصر ما أن نشتق لفظا حديثا لمعنى حديث فيمكن وصفه حينئذ بالاشتقاق الخاص وهو ضرب من المولد فحاجة العربية إلى هذا النوع – أعنى الاشتقاق الخاص – أصبح واجبا ، ولن تسد هذه الحاجة إلا بتوليد جديد .

أو القرابة النسبية – الرؤية والرؤيا والرئى ، والرئى ، والرأى ، وراءى والريـلء ، والمرآة والرئة ، كما قد أخذ منها – على توهم أصالة الميم فى " مـــرآة " ولا زال فى عداد الاشتقاق الأصغر فى رأيي – مرء ، وامرأة والمروءة والمراء ، والمرية ، والمرئ كما تولد منها على سبيل الاشتقاق الأكبر أو القرابة الســـببية : بـــرأ والبراء والبرئ والبراءة ، والبرية والبرء – إذ الباء أخت الميم – .

ومن ثم لو قلنا : إن فى هذه الاشتقاقات جميعا نسبيها وسببيها معنى عاما يجمع بينها يدور حول الظهور والانكشاف ، صريحا فى بعضـــها وتلميحـــا فى الآخر لم نبعد .

ولو أردنا أمثلة أخرى لنؤكد عمومية الاشتقاق نسبا وسببا وكثرة التوالد فى العربية فلنول وجهنا شطر معجم من معاجمها لنجد فيه ما نريد ، وأكتفى بمثال آخر لتوكيد ما عمدت إليه آنفا ، خذ مثلا (ح ز ز) فسوف نجد أن المعنى الحسى – المتولد كما زعمت من قبل عن أصل طبيعى – هو القطع ، ومنه كانت الفروع المعنوية بعد ذلك ، فجاءت لفظة الحزم – لضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة – والحزن – لما غلظ من الأمر – وحسر البصر – كل وانقطع من طول مدى – والحس – للجلبة والقتل والاستئصال – والحسم للداء : قطعه بالدواء ، ثم لا نزال نجد المعنى المجسم فى البناء الأصلى الحسى مطلا برأسه فى حصد وحصر ، وحصن ، وحطم ، وحظر ، وحجر ، وحظل ، وحجب .

ولا ينبغى الاعتراض على ذلك ، لأن الدليل واضح ، وهو المعنى الذى ربط بين الأصل الحسى والفروع المعنوية ، كما لا ينبغى الاعتراض بما اشترك مع هذا الأصل وفروعه فى رأس المقطع واشتط معناه ، فى مثل : حض ، وحضن ، وحضر ، وما إلى ذلك ، إذ علينا والحال هذه أن نبحث عن أصل آخر منه أخذ ذلك ، فكما قلت إن طور الألفاظ الحسية من أخصب الأطوار ، كثرت فيه الأمهات ، وعمت فيه الاشتقاقات وليس صعبا أن نعثر على البناء الأصلى للفروع المتولدة عنه ، إذ ما برح كل قبيل من الألفاظ محتفظا بخاصية الانتماء إلى أصله نسبا وصهرا .

فها هم علماؤنا يرجعون كثيرا مما يمرون عليه من فروع إلى أصولها دون تكلف أو عناء ، فيرى " ابن دريد " أن السيف مشتق من قولهم : ساف ماله ، أى هلك ، فلما كان السيف سببا للهلاك سمى سيفا [1] .

---

(1) انظر المخصص لابن سيده ٦ / ١٦ .

كما يرى اشتقاق السوط من قولهم : سطت الشئ سوطا إذا خلطـــت شيئين من إناء وغيره ثم ضربتهما بيدك حتى يختلطا، وذلك أن الســـوط بســـوط اللحم بالدم [1] .

والثرثارون ، الذين يكثرون الكلام تكلفا وتجاوزا وخروجا عن الحق ، قال المبرد : أصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء ، يقـــال : عـــين ثرثارة ، وكان يقال لنهر بعينه : الثرثار ، وإنما سمى به لكثرة مائه، قال الأخطل [2] :

لعمرى لقد لاقت سليم وعامر

على جانب الثرثار راغية البكر

وقد أغرب " المبرد " حيث قال عقب ذلك : وليســـت الـــثرة عنـــد النحويين البصريين من لفظة الثرثار ولكنها فى معناها ، ويجب أن يكون من الثرة ثوار [3] .

إذ الأصح أن الثرة – لأنها البناء المجرد – هى الأصل ، والثرثار – لأنـه البناء المضعف – مأخوذ من المجرد لداعى التسمية ، كما أن الثوار أيضا منـــها لداعى المبالغة ، ثم ولد منها لداعى التشابه فى المعنى أسماء : " كالثرى والـــثراء والثريا ، " قال الكوفيون فى نحو زلزل وصرصر ودمـــدم : إن الثـــالث زائـــد لشهادة الاشتقاق ، فزلزل من زل ، وصرصر من صر ، ودمدم من دم ، لاتفاق المعنى [4] .

---

(1) المرجع السابق ٦ / ٩٩ .

(2) انظر الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ١ / ٤ .

(3) المرجع السابق .

(4) انظر شرح شافية ابن الحاجب للرضى ١ / ٦٣ ، ٢ / ٣٦٦ .

وهذا قول مقبول لمراعاته قواعد الاشتقاق ، ولذلك لما ذكـــر شـــارح الشافية قول " السرى الرفاء " فى كتاب المحب والمحبوب : زلـــزل مـــن زل ، كجلبب من جلب ، وكذا نحوه ، يعنى أنه كرر اللام للإلحاق فصار زلل فالتبس باب ذلل يذلل تذليلا ، فأبدل اللام الثانية فاء وهو قريب ، علق شارح الشـلفية على هذا بقوله : لكنه يرد عليه أن فيه إبدال بعض ما ليس من حروف الإبدال ، كالكاف فى كركر بمعنـــى : كر [1] .

وأيما كان أمر الاشتقاق ، فبه نحدد مادة الكلمة ونربطـــها بأخواتهـــا وبالمجموعة التى تنتسب إليها ، فلا يلتبس علينا الفرع بالأصل إن أدركنا عمليـة الاشتقاق كيف تكون [2] ، ولذلك نجد علماءنا فيما غمض أصلـــه يحـــاولون استجلاءه بما يمكن أن يكون هذا الفرع منه كما فى مثل " استكان " ، قيـــل : أصله استكن فأشبع الفتح ، كما فى قوله :

يذباع من ذفرى غضوب جسرة

زيافة مثل الفنيق المكدم

إلا أن الإشباع فى استكان لازم عند هذا القـــائل ، بخـــلاف ينبـــاع ، وقيل : استفعل من الكون ، وقيل من الكين ، والسين للانتقال كما فى استحجر ، أى انتقل من كون إلى آخر – أى حال أخرى – أى من العـــزة إلى الذلـــة ، أو صار كالكين ، وهو لحم داخل الفرج أى فى اللين والذلة [3] .

([1]) المرجع السابق ١ / ٦٣ .

([2]) انظر دراسات فى فقه اللغة د / صبحى الصالح ص ١٨٠ .

([3]) انظر شرح الشافية للرضى ١ / ٦٩ ، وما بعدها .

وإذا ولينا وجوهنا شطر النحت وجدناه توليدا صناعيا أكثر من اعتباره اشتقاقا طبيعيا ، لأن الاشتقاق الطبيعى أخذ من أصل مجرد والنحت تجريد من أصول مختلطة تجمع بين المجرد والمزيد ، وذلك مثل : الإمعة – الذى يتبع كل أحد على رأيه – منحوت من قوله : أنا معك [1] .

ومثل حوقل ، من لا حول ولا قوة إلا بالله ، وبسمل ، من بسم الله الرحمن الرحيم الله ومن سواء وسية صاغوا اسما واحدا من الكلمتين فقالوا سواسية [2] .

ولكنه من منظور الأصالة والفرعية ضرب من الاشتقاق ، وواضح أنه مستفاد فى اللغة – كدال معنوى – مما هو حادث فى الواقع – كدال حسى – نلمس ذلك مما نقل " السيوطى " ما رواه " ياقوت " فى كتابه : معجم الأدباء : أن عثمان بن عيسى النحوى سأل " الظهير الفارسى عما وقع فى ألفاظ العرب على مثال شقحطب ؟ فقال هذا يسمى فى كلام العرب المنحوت ، ومعنله : أن الكلمة منحوتة من كلمتين كما ينحت النجار خشبتين ويجعلهما واحدة ، كشقحطب من " شق حطب " فسأله عيسى أن يثبت له ما وقع من هذا المثال إليه ليعول فى معرفته عليه ، فأملاها عليه فى نحو عشرين ورقة من حفظه ، وسماها : كتاب تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب [3] .

فقوله : كما ينحت النجار خشبتين ويجعلهما واحدة ، إيماء واضح إلى المصدر الحسى الذى صيغ النحت على منواله ، ولذلك رأيت أنه توليد صناعى ،

---

(1) انظر تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ، لابن مكى ص ٣٣٦ .

(2) انظر المخصص لابن سيده ١٢ / ١٦١ .

(3) المزهر للسيوطى ١ / ٢٨٦ .

كما أرى أنه لم يكن لأول الأمر لغرض الاختصار ، بل كان توليـــــداً لغـــرض معنوى آخر ليس هو المعنى الموجود فى المنحوت منه ، والذين رأوا أنه للاختصار والمعنى فيه هو نفس المعنى الموجود فى المنحوت منه نظروا إلى حلقته الأخـــيرة ، أما حلقته الأولى – وهى التى تكشف عن نضج لغوى – فقد رآهـــا العلامـــة " ابن فارس " فى مقاييسه من خلال المواد اللغوية الزائدة على ثلاثة أحـــرف ، إذ قال عنها ابن فارس : اعلم أن للرباعى والخماسى مذهبا فى القياس يســـتنبطه النظر الدقيق ، وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت ، ومعنى النحت أن تؤخـــذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ [1] .

وهذا أيضا ما رآه العلامة " ابن جنى " فى الكلمتين إذ ركبتـــا ولكـــل منهما معنى وحكم ، أصبح لهما بالتركيب معنى وحكم جديد ، واستدل علـــى ذلك بمذهب الخليل فى " لن " قال : وذلك أن أصلها عنده " لا وأن " وكـــثر استعمالها ، فحذفت الهمزة تخفيفا ، فالتقت ألف " لا " ونـــــون " أن " وهمـــا ساكنتان ، فحذفت الألف من " لا " لسكونها وسكون النون بعدها ، فصـلوت " لن " فخلطت اللام بالنون وصار لها بالامتزاج والتركيب الذى وقع بينـــهما حكم آخر [2] .

ولم يخرج المستشرق " برجشتراشر " عما قاله الخليل فى " لن " بعد مـــا رأى من قبل أن أقدم أدوات النفى فى العربية " لا " التى تشـــترك فيـــها بقيـــة الساميات الأخرى ، وانفردت العربية بعد ذلك عنها فى أنها اشتقت مـــن " لا " أدوات أخرى للنفى لا توجد فى سائر اللغات السامية ، إلا ليس ، فيقابلـــها فى الآرامية " layt " وهى مركبة من لا واسم معناه الوجود [3] .

---

(1) المقاييس لابن فارس ١ / ٣٢٨ .

(2) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١ / ٣٠٥ ، وما بعدها .

(3) التطور النحوى لبرجشتراسر ص ١٦٨ ، وما بعدها .

قال بعض الباحثين : ولعل التركيب فى الحروف يشير إلى قـــدم هـــذه الوسيلة فى العربية [1] .

ولكن لا يجوز بالإشارة إلى قدمها أن نغالى غلو بعض الباحثين فى قوله : إنى لا أتورع أن أقول : عن الثروة اللفظية فى العربية ســـببها النحـــت وألفاظ اللغة السماعية [2] .

فلو كان الأمر كذلك ما اختلف العلماء حوله : أسماعى هو أم قياسى ؟

ثم إن هذا الضرب من الاشتقاق ولدته حاجة فى النفـــس ، ولم تقـــف النفس عنده – كما لم تقف عند غيره – للاستقصاء والتحليل المنطقى ، ولذلك كان " ابن فارس " لماحا أريبا حين رأى أن الرباعى لا يفسر دائمـــا بظـــاهرة النحت ، لأنه على ضربين : أحدهما : المنحوت الذى ذكرنا والآخر : الموضوع وضعا لا مجال له فى طرق القياس [3] .

وإن لغة أخرى غير العربية لهى مما يمكن ألا نتحرج فى اعتداد ثروتهـــا اللفظية أكثرها من النحت ، وقد ذكر العلماء حديثا نوعا من النحت قالوا عنه : وهذا النوع شائع أيما شيوع فى اللغات الهندية – الأوروبية ، وبخاصة الحديـــث منها – يعنى ما يزال يتولد به ألفاظ فى هذه اللغات حتى إن مـــا يرجـــع مـــن مفردات هذه اللغات إلى أصل واحد لقليل بالنسبة إلى ما يرجع منها إلى أصلين ، أو عدة أصول ، ولكنه نادر جداً فى فصيلة اللغات السامية على العموم ، وهـذا من أهم الفروق التى تميز هاتين الفصيلتين إحداهما عن الأخرى [4] .

---

(1) انظر فقه اللغة المقارن ، د / السامرائى ، ص ٦٤ .

(2) الأستاذ إسماعيل مظهر / فى تجديد العربية ، ص ٢٤ وما بعدها .

(3) المقاييس / لابن فارس ١ / ٣٢٨ ، ويمكن تعليل ذلك بأن بناة اللغة وصانغيها لم يكونوا يقصـــدون إلى ذلـــك قصدا ، بل جاء ذلك عنهم استجابة تلقائية لما فطروا عليه من تذوق للألفاظ وكيفية صياغتها .

(4) انظر فقه اللغة ، د / على وافى ص ١٨٧ .

ذلك لما ذكرت من قبل من أن النحت توالد صناعي ، والعربية محظوظة بوفرة التوالد الطبيعى ، ولذلك عد الباحثون النحت لونا من الاشتقاق لم يعرفه العرب كثيرا ولم يغلوا فيه غلوهم فى أنواع الاشتقاقات الثلاثة الشائعة ولعلهم لم يؤنسوا دافعا للغلو فيه لأن أنواع الاشتقاق أغنتهم عنه ، فلم يخلفوا لنا من الشواهد عليه إلا النزر اليسير [1] .

ناهيك عن باب اعتبره فقهاء اللغة قديما وحديثا ميزان العربية ، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليه ، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به وهو ما سوف أوجزه الآن أيضا : -

عن التصريف : -

وهو فى اصطلاح العلماء : علم بأصول تعرف بها أحوال أبنية الكلم التى ليست بإعراب [2] .

وفى هذه العجالة لن أعرض لهذه الأصول - التى فسرها شارح الشافية بالقوانين - بقدر ما سوف أعرض للتصريف كمنهج علمى لتحويل الكلمة إلى أبنية مختلفة لضروب من المعانى ، لا تحصل إلا بذلك التحويل وهذه الضروب من المعانى نعلم بالطبع أنها ليست شيئا من المعانى الحسية والمعنوية المستفادة من ذات اللفظ ، وإنما هى المعانى المتولدة - إن صح التعبير - من تصريف أو تحويل اللفظة - حسية كانت أو معنوية - إلى صيغ وأوزان مختلفة ، وتعرف هذه المعانى بمعانى الصيغ والأوزان ، وذلك كمعانى المفاعلة ، والمطاوعة والتكثير والتصغير والنسب والإلحاق وهلم جرا .

---

(1) دراسات فى فقه اللغة ، د / صبحى الصالح ، ص ٢٤٣ .

(2) شرح شافية ابن الحاجب ، للرضى ١ / ١ .

ولا ريب فى أن توليد هذه المعانى يفصح عن رقى فى الفكـــر اللغـــوى ودليل عملى على نضج وعمق أصحاب هذه اللغة الأوائل ، الأمر الذى يحملنـا على اعتبارهم باحثين لا مجرد مستعملين ومبدعين للغة ، ومن هـــذا المنطلـــق عمدت إلى تأخير الحديث عن التصريف ، عن الحديث عن الاشـــتقاق ، – وإن كان الاشتقاق فى الحقيقة جزءا من التصريف [1] – لأن التصريف إذا تدرجنـــا فى باب التوالد اللغوى هو آخر ما تمخضت عنه أمهات الألفـــاظ الحســـية فى العربية ، بيد أن الأم هنا فى الجانب التصريفى لم ينته إنجابها بعد ، فمـــا زالـــت وسوف تظل ولودا ما دام ناطقوا اللغة ومستعملوها تنبض أفئدتهم بالحيـــاتين : الأدبية والعلمية ، إذ التصريف ما زال فى جانب منه – على ما حكى ســـيبويه عن العلماء – " هو أن تبنى من الكلمة بناء لم تبنه العرب ، على وزن ما بنتـه ثم تعمل فى البناء الذى بنيته ما يقتضيه قياس كلامهم [2] .

يريد بذلك – كما وضح محققوا شرح الشافية – أن تأخذ من الكلمـــة لفظا لم تستعمله العرب ، على وزن ما استعملته ثم تعمل فى هذا اللفظ الـــذى أخذته ما يقتضيه قياس كلامهم من إعلال وإبدال وإدغام [3] .

وهذا التصريف – كما فى الاشتقاق أيضا – من إفراز الألفاظ الحســـية كما سبق الحديث عن ذلك ، إذ ما فتئ التوالد فيه دائرا بـــين أصالـــة المبـــنى وتفريعـــات المعنى [4] ، وجاءتنا أمثلته عن بناة اللغة الأقدمين ، فمـــن فعـــل

---

(1) لأن الاشتقاق خاص والتصريف عام ، فكل اشتقاق تصريف وليس كل تصريف اشتقاق – انظـــر الممتـــع فى التصريف لابن عصفور ١ / ٥٣ .

(2) انظر شرح شافية ابن الحاجب للرضى ١ / ٦ / ، وما بعدها .

(3) المرجع السابق / الهامش للمحقين .

(4) فإذا كان توليد الكلمة من أصلها يسمى اشتقاق وتقليبها فى أوزان مختلفة يسمى تصريفا فلكل منهما أصـــل – كما عرف – تعود إليه فروعهما التى اقتضاها المعنى .

جاءت فاعل وتفاعل وافتعل للمشاركة ، كقاتل وتقاتل واقتتل ، ومـــن أفعـــل وفعل جاءت افعوعل للتكثير والتأكيد ، كاعشوشب ، واخشوشن ، وفى بـــاب معانى أبنية السماء ، ما يأتى منها على وزن فعلان ، فمعناه الحركة والاضطراب ، نحو نزوان ، غليان ، طيران ، وطوفان [1] .

وما يأتى على فعلان ، كثيرا ما يأتى فى الجوع والعطش وما قاربهما وما ضادهما ، نحو : ظمآن ، وصديان ، وجوعان ، وغرثان ، ولهفان ، وشبعـــان ، وريـــان ..... [2] .

وما منها للإدواء والألوان والعيوب والأصوات وما إلى ذلك صيغ على وزن معين ، وكذلك للتصغير وجموع التكثير وإرادة النسب ، لكل من ذلـــك أوزان وصياغة مضبوطة وقواعد معروفة .

ولا نعدم لهذه الصيغ والأوزان أدلة مما أثر عن فصحـــاء العربيـــة ، فى نثرهم وأشعارهم ، الأمر الذى يحدونا إلى أن نتوقف عند قول مـــن رأى مـــن الباحثين : " أن الاشتقاق والتصريف حادثان فى اللغة [3] . ، لأنه يوهم أن اللغة فوجئت بهما ، وهذا خلاف ما ركزنا عليه فى هذا البحث وهو تناســـل اللغـــة بطريق التوالد ، وليس يملك باحث ما وثيقة تاريخية لحدوث أمر فى اللغة لم يكـن من قبل .

فالعربية بازاء الصيغ والأوزان – أى فى باب التصريـــف – تعـــد فى مقدمة اللغات المتصرفة ، إذ استعملت اللواصق اللغوية صدرا وكسعا وحشـــوا لتنويع الصيغ والأوزان للمعانى الصرفية .

---

(1) انظر فى ذلك أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٤٦٠ ، ما بعده .

(2) المرجع السابق ص ٥٧٦ ، وما بعدها .

(3) انظر الفلسفة اللغوية ، جورجى زيدان ص ٨٧ .

وإذا استدركت شيئا على ما ذكرت من قبل فإنما أستدرك تنبيها علـــى أمرين اثنين :

الأول : التوالد بين الثنائية والثلاثية :

قد رأيت من قبل أن اللغة بدأت – فى طور الألفاظ الطبيعية – باللفظـة ذات المقطع الواحد – المغلق غالبا أو المفتوح أحيانـــا – ثم ثنـــت – فى طـــور الألفاظ الحسية : طور الاشتقاق – بالفعل الماضى وهو ما رآه الكوفيون من قبل ، وأشار إليه العلامة " الرضى " حين ذكـــر أن الماضى أصل أمثلـــة الأفعـــال فى اللفظ [1] ، وليس هو فعل الأمر كما زعم بعض الباحثين المحدثين ، وزعـــم أن ذلك من الحقائق المعروفة فى علم اللغات [2] ، لأننا لن نتصور الإنسان مذ كـــان يبنى اللغة ويصوغ مفرداتها آمرا ناهيا ، بل يمكن تصوره مخبرا أو مستخبرا .

ولنستمع إلى " سيبويه " وهو يذكر لنا عدة أبنية الكلام قائلا " واعلـــم أن ما جاء فى الكلام على حرف قليل ، ... واعلم أنه لا يكون اسم مظهر عـــل حرف أبدا ، ... ثم الذى يلى ما يكون على حرف ما يكون عل حرفين ، وقـــد تكون عليها الأسماء المظهرة المتمكنة والأفعال المتصرفة ، وذلك قليل ، ... وأمـــا ما جاء على ثلاثة أحرف فهو أكثر الكلام فى كل شئ من الأسمـــاء والأفعـــال وغيرهما مزيدا فيه وغير مزيد فيه ، وذلك لأنه كأنه هو الأول ، فمن ثم تمكن فى الكلام ، ثم ما كان على أربعة أحرف بعده ، ثم بنات الخمسة ، وهـــى أقـــل ، لا تكون فى الفعل البتة ، ولا يكسر بتمامه للجمع ، لأنهـــا الغايـــة فى الكـــثرة فاستثقل ذلك فيها ، فالخمسة أقصى الغاية فى الكثرة [3] .

---

(1) انظر شرح شافية ابن الحاجب ١ / ٣٤ .

(2) انظر د / حسن ظاظا فى اللسان والإنسان ، ص ١١٣ .

(3) الكتاب لسيبويه ٤ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ، وما بعدها .

وفيما ذكره سيبويه تظهر منه دقته وبراعته ، فهو من الموقنين بتـــدرج البناء اللغوى ، حتى إذا جاء للثلاثى رأى أنه أكثر الكلام ، وذلك لأنه كأنـــه الأول ، وتلك عبارة منه دقيقة بارعة ، فليس على ذلك الثلاثى مأخوذ مـــن غيره ، وإنما هو قسم فى البناء اللغوى قائم برأسه ، تزاحم عنده البناء اللغـــوى لاعتداله كما رأى أكثر اللغوين ، فكان أن وضع علماء الصرف ميزانهم علـــى ثلاثة أحرف .

ولذلك لم يناقش علماؤنا الأوائل قضية الثنائى لاحتمـــال أن يكـــون الثلاثة قد تولد منه ، فلو كان ثم احتمال لذلك لناقشوه ، فهم ما زالوا أقـــرب الباحثين إلى عصر البناء الأول أو ما زال البناء اللغوى غضا طريـــا أقـــرب إلى عصرهم من سواهم ، يدل على ذلك ما ذكره صاحب الكتاب عن مضـــارع " وجل " فيقول : أهل الحجاز يقولون : يوجل ، وغيرهم من العرب سوى أهل الحجاز يقولون فى توجل : هى تيجل ، وبعض العرب يقولون ييجل ، وبعضـــهم ياجل .....[1] .

ولولا قرب " سيبويه " من القائلين ما ذكر ذلك ، لأنه لم ينقل هذا مـــن كتاب مسطور ، أو رق منشور .

ولم نجد عند العلامة " ابن جنى " وهو المعروف بفيلسوف اللغة مناقشـــة يصرح فيها بتوالد الثلاثى من الثنائى ، بل رأى أن أعدل الأصول اللغوية هـــو الثلاثى ، لأنه حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به ، وحرف يوقف عليه ..... .

---

(1) المرجع السابق ٤ / ١١١ .

ألا ترى أن المبتدأ به لا يكون إلا متحركا ، وأن الموقوف عليه لا يكون إلا ساكنا ، فلما تنافرت حالا هما وسطوا العين حاجزا بينهما لئلا يفجأوا الحس بضد ما كان آخذا فيه ومنصبا إليه ؟ [1] .

ولم أعثر فيما ذكره الأقدمون عن ذلك إلا كما ألمحت إليه من قبل لدى العلامة " ابن فارس " الذى رأى الرباعى والخماسى – أو بعضهما على الأصح – منحوتين من كلمتين ، بل إنه عند التطبيق على الأمثلة التى ذكرهـــا لم يذكـــر أحيانا كلمتين ، بل ذكر كلمة ثلاثية ولاصقة صوتية ، كما فى " بلعوم " قـال : مأخوذ من بلع ، إلا أنه زيد عليه ما زيد لجنس من المبالغة فى معناه ... وكمـا فى البرزخ – الحائل بين الشيئين – كأن بينهما برازا أى متسعا مـــن الأرض ، ثم صار كل حائل برزخا فالخاء زائدة ..... ومن ذلك " برقع " – اسم الدنيـــا – فالباء زائدة ، والأصل الراء والقاف والعين ، لأن كل سماء رقيع ، والسـماوات أرقعة ، ومن ذلك : البلقع – الذى لا شئ فيه – فاللام زائدة ، وهو من بـــاب الباء والقاف والعين [2] .

ولم أعثر أيضا إلا على ما ذكره شارح شافية ابن الحاجب عن مذاهـــب العلماء فى الرباعى والخماسى بقوله : اعلم أن مذهب " سيبويه " وجمهور النحاة أن الرباعى والخماسى صنفان غير الثلاثى ، وقال " الفراء " و " الكســـائى " : بل أصلهما الثلاثى : قال الفراء : الزائد فى الرباعى حرفه الخير وفى الخماســـى

---

(1) الخصائص لابن جنى ١ / ٥٥ وما بعدها – والدليل على أن " ابن جنى " تستهويه غوامض اللغة فلا تمر عليـــه دون أن يستفرغ فيها جهده ، عندما وقف عند أجناس الكلام الثلاثة – الأسماء والأفعال والحروف – وتساءل : هل وقع جميعها فى وقت واحد ؟ أم تتالت وتلاحقت قطعة قطعة وشيئا بعد شئ وصدرا بعـــد صـــدر ؟ انظـــر الخصائص ٢ / ٣٠ ، وما بعدها .

(2) راجع المقاييس لابن فارس ١ / ٣٢٨ وما بعدها .

الحرفان الأخيران ، وقال الكسائى : الزائد فى الرباعى الحـــرف الـــذى قبـــل آخره ، ولا دليل عل ما قالا وقد ناقضا قولهما باتفاقهما على أن وزن جعفـــر : فعلل ، ووزن سفرجل : فعلل ، مع اتفاق الجميع على أن الزائـــد إذا لم يكـــن تكريرا يوزن بلفظه [1] .

فمن الممكن أن يكون بعض الرباعى والخماسى متولدا عن الثلاثى كمـا قال " الفراء والكسائى " ولا يمنع من ذلك وزنهما على الأصالة ، لأن الزيـــادة فيهما قديمة وكثر استعمالها فتنوسى الأصل الثلاثى ، وذلك وارد فى العربيـــة ، فقد ذكر صاحب الشافية – ابن الحاجب – أن وزن مراجل فعـــالل ، فقـــال الشارح – الرضى – كان ينبغى نظرا إلى غلبة الزيادة أن يحكم بزيادة الميـــم ، لكونه فى الأول وبعده ثلاثة أصول ، لكن " سيبويه " حكم بأصالتـــها لقـــول العجاج :

بشية كشية المرجل

والمرجل : الثوب الذى فيه نقوش على صورة المراجل ... ولا يبعد أن يقـــال : إن المرجل مفعل ، ولزوم الميم أوهم أصالتها كما فى مسكين ، فقيـــل : ممرجل ، كما قيل ممسكن [2] .

ولكن علماءنا – رحمهم الله – فيما بعد وضعوا الضوابط التى تمكن من معرفة الزيادة ، وفى مقدمتها الاشتقاق للاهتداء إلى الأصل المجـــرد ، كمـــا فى الخنفقيق – الداهية – من الخفق ، وهو الاضطراب لأن فيها اضطرابا وقلقا لمـن وقع فيها [3] . وكما فى عفرنى – وهو الأسد القوى المعفر لفريسته – والعفر – بالتحريك – التراب [4] .

---

(1) انظر شرح شافية ابن الحاجب للرضى ١ / ٤٧ .
(2) المرجع السابق ٢ / ٣٣٧ ، وما بعدها .
(3) السابق .
(4) السابق .

وكما فى ميناء – الموضع الذى تحط فيه السفن ، مشتق من الونى وهو الفتور والسكون ، كأن السفن جرت حتى فترت وسكنت هنالك ، فسمى مكان سكونها ميناء ، والعرب تبنى مفعلا ومفعالا من الونى فيقصر ويمد قال نصيب [1] :

تيممن منها ذاهبات كانه بدجلة فى الميناء فلك مقير

فإذا جاء ما لا يعرف له اشتقاق قضى بالزيادة فيه حملا على الأكثر مما عرف له اشتقاق نحو " مأسل " – اسم موضع – ينبغى أن يقضى بزيادة الميم وفى أمثاله ، وإن لم يعرف له اشتقاق [2] .

وفى الحق لم تبحث قضية الثنائية صراحة إلا حديثا ، حيث استقر لدى لفيف من الباحثين المحدثين مذهبا مؤسسا على اعتقاد أن الأصول اللغوية ثنائية ، وأن الأصول الثلاثية وما فوقها مولدة من تلك الأصول الثنائية ، ولا ريب أنهم أسسوا مذهبهم هذا على ما عرض له علماؤنا القدامى ، وبخاصة علماء المعاجم الذين بدأوا مصنفاتهم المعجمية بالمواد الثنائية ، فقالوا : الثنائية هى النظرية القائلة بأن الأصول فى العربية وكذلك الحال فى أخواتها السامية ليست الألفاظ ذوات الحروف الثلاثة بل ذوات الحرفين ، إذ من شأن الثلاثيات أن ترد إلى الثنائيات [3] .

---

(1) انظر لحن العامة للزبيدى ، ص ٤٥ ، وما بعدها .

(2) انظر الممتع فى التصريف لابن عصفور ١ / ٢٤٨ ، وما بعدها .

(3) انظر المعجمية العربية للدومنكى ، ص ٦ .

وقالوا : بأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى نفسها يـــرد معظمـــها بالاستقراء إلى أصول ثنائية تحاكى أصواتا طبيعية ..... إلخ [1] .

كما رأى أحدهم : أن أغلب الكلمات الثنائية قد تطـــورت فى اتجـــاه الثلاثى لإحداث ضرب من التوازن ، ولكى تصبح مماثلة لأكثر الكلمات العربية وهى الكلمات الثلاثية [2] .

وطبعى أن يوجد من الباحثين من يرد هذا المذهب ، ويرون أن الـــذى أعان على إبراز فكرة الثنائية مفردات ليس لها نظائر كثيرة فى اللغة ، وهـــى فكرة حسنة ولكنها قاصرة عن تفسير كل وجوه التطور ،أو على الأقل نشأة كـل الجذور الثلاثية [3] .

كما يرون أن خلاصة الرأى فى الثنائية ، أنها وإن وجـــدت فى بعـــض الكلمات الثنائية فإننا لا يصح أن نعدها الأصل الأول لهذه اللغات [4] .

وقد أبديت رأيي من قبل من منطلق أن تاريخ اللغة هو تاريخ الإنســـان مذ كان ، بدت لغته – فى طور الألفاظ الطبيعية – بالمقطع الواحد ، ثم أضيـــف إلى هذا المقطع مقاطع أخرى فى طور آخر – أى فى طور الألفاظ الحسية – ومن التكلف والتعنت أن يبحث اللاغون عن لاصقة صوتية فى بعض أطوار اللغـــة ليثلثوا أو يخمسوا ألفاظها الثنائية ، ثم إننا نجد فى العربية كلمات طويلة ، ومـــن العبث أن نبحث لها عن أصل ثنائى أو ثلاثى ، بل ومن المحال أن نتكلـــف لهـــا اشتقاقا نعرف من خلاله أصولها مثل : الشمشليق : الذى لا يبـــالى مـــا أخـــذ

---

(1) انظر الفلسفة اللغوية ، لجرورجى زيدان ، ص ٣٣ ، وما بعدها .

(2) انظر علم اللغة العربية ، د / محمود حجازى ، ص ٢٠٦ ، الطبعة الأولى .

(3) انظر فى التطور اللغوى ، د / عبد الصبور شاهين ، ص ١١١

(4) انظر فصول فى فقه العربية ، د / رمضان عبد التواب ، ص ٣٠١

واستلب ، ومثل القرعوش والقرعوس : الجمل الضخم [1] ، والقفندر : قال ثعلب : هو الشيب فى القفا ، قال المحقق : انفرد ثعلب بهذا التفسير ، والذى فى المعاجم أن القفندر : القبيح المنظر [2] ، والعربسيس : الداهية [3] ، والإبل المجاليح : التى لا تحارد : أى التى لا يقل لبنها ، قال الشاعر :

ترفد فى الصر وإن تشاجر تكن مجاليح الشتاء الجازر [4]

فهذه الكلمات الطويلة من أمهات ماتت ، وقد طالت بتراكم المقاطع فيها حتى آب الفكر العربى بعدها إلى أعدل تآليف الأبنية وهو الثلاثى ، وإلى أن انتهى الفكر العربى أيضا بعد هذا الاعتدال إلى ذورة التوالد ، وهو استغلال الحركات فى توليد المعانى ، وهذا هو الأمر الثانى المستدرك على ما ذكرت من مناحى التوالد فى العربية .

التوالد اللغوى والحركات :

لقد استنفذ مؤلفوا الأصول اللغوية العربية جهدهم فى استخراج ما فى بطونها اشتقاقا وتصريفا ، ولكن لما تنته المعانى بعد ، فاستنهضوا الحركات لتضيف معنى آخر من نفس اللفظ المؤدى للمعنى الأول ، فيكون للفظ معنيان أو ثلاثة ، وقد ذكر لنا " ابن قتيبة " أمثلة كثرا لما له معنيان من لفظ واحد لتناوب حركتين على صوت منه أو لتناوب الحركة مع السكون ، ومن ذلك

---

(1) مجالس ثعلب ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ١ / ١٣٦ .
(2) المرجع السابق ١ / ١٦٥ .
(3) السابق ١ / ٣٧٦ .
(4) السابق ٢ / ٢٩٩ .

الجهد – بضم الجيم وفتحها ، والعرض والعرض ، والغبن والغـــبن ، والضـــر والضر ، والذل والذل [1] .

وعد لنا " ابن السيد البطليوسى " للمثلث المختلف المعانى خمسا وأربعين كلمة ، لما بدأ من الألفاظ بالهمزة منها : الأل – بفتح الهمزة – هى الصـــراخ عند المصيبة ، وبكسرها – العَهد ... – وبضمها الأول [2] .

وعد إحدى وعشرين كلمة لما بدأ من الألفاظ بالباء ، منها : الـــبر – خلاف البر ، والبر – الإكرام – والبر – الحنطة ..... [3] وقد بلغ ما عده ابـن السيد من المثلث المختلف المعانى ستمائة وخمس وتسعون كلمة .

وعلى أية حال فإن هذا التوالد للمعانى بالحركات لدليل علـــى بلـــوغ اللغة المرحلة الفكرية الفلسفية ، وهذا مجال بحث جدير بالتتبع والاســـتقصاء ، لأنه مدخل علمى إلى عبقرية اللغة العربية [4] .

ومن المهم فى ختام هذا المبحث الثانى – أمهات الألفاظ – أن أوضـــح أن ألفاظ اللغة العربية المتولدة الطبيعية والحسية قد رســـت باللغـــة إلى مقـــر الدلالات الحقيقية التى سجلتها المعاجم بازاء ألفاظها واستشهدت عليها بالآثـــار

---

(1) أدب الكاتب لابن قتيبة ، ص ٣٠٧ ، وما بعدها .

(2) انظر المثلث لابن السيد البطليوسى ، ٣٠٦/١ ، وما بعدها .

(3) المرجع السابق ٣٥٣/١ ، وما بعدها .

(4) وهذا بالإضافة إلى توظيف الحركات لبيان المعانى النحوية ، من فاعلية ومفعولية وإضافة وما إلى ذلـك ، حتى " امتازت اللغة العربية فى شئون التنظيم (syntaxe) بتلك القواعد الدقيقة التى اشتهرت باســـم قواعد الإعراب والتى يتمثل معظمها فى أصوات مد قصيرة تلحق أواخر الكلمات لتدل علـــى وظيفـــة الكلمة فى العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة "وقد رأى أناس من مؤرخى اللغة أن الإعـــراب فى اللغة العربية أثر من آثار استخدام الحركة فى التعبير عن المعنى وأن العربية تفردت بين لغات العالم بهذه الخاصية الفنية . انظر فقه اللغة ، د / على وافى ، ص ٢١٠ .

الصحيحة الفصيحة ، فكانت هذه الألفاظ ذات الدلالات الحقيقية منفذا آخـــر لتوالد من نوع جديد أوجزه فى النقطة الآتية : —

ثالثا : الألفاظ الحقيقية : -

وهى : ذات الدلالات الثابتة المفهومة عنها حال إفرادها خاصـــة " [1] وهى ما أحصتها المعاجم اللفظية والمعنوية على السواء دون تحديد لماهيتـــها إن كانت طبيعية أو حسية أو معنوية ، فتلكم قد انتهت دلالاتها إلى حقائق ثابتـــة عرفها المجتمع اللغوى واستثمرها فى علاقاته ومعاملاته .

فلو قرأنا أو سمعنا هذه الألفاظ : الشرف الكتاب ، الجمال ، العقـــل ، سطع ، فهم ، نبغ ، سعد ، يبنى ، يدعو ، استغفر ، اجتهد ... فـــإن القـــارئ والسامع لن يجد حائلا بينه وبين معانيها ، مفردة جاءته أو مركبة فى جملـة ، لأن هذه المعانى هى آخر ما استقرت عليه ألفـــاظ اللغـــة ، واكتســـبتها بكـــثرة الاستعمال ، ولم تعد لأصول هذه المعانى أثارة من علم فى ذهن الناطق والمتلقى ، فمهما استوحينا أصول هذه الدلالات فإنها تلمع أمام الذهن كســـراب بقيعـــة يحسبه الظمآن ماء .

وفى رأيي أن اختلاف العلماء حول ألفاظ اللغة أهى حقيقية أم مجازية ؟ [2]

---

(1) هذا التعريف خاص بالباحث .

(2) هناك رأيان : رأى يقول بأن اللغة فى جملتها أو فى معظمها مجاز ، وعلى هذا أبو على الفارسى وتلميـــذه ابن جنى ، حيث قال فى الخصائص : اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة ، والرأى الآخر : يقـــف عند ظاهر النص ويؤكد أن لا مجاز فى اللغة ، ونقل السيوطى هـــذا الـــرأى منســـوبا إلى " أبى اســـحق الإسفراينى " وهو مفهوم من كلام " ابن تيمية " رحمة الله وهناك مذهب آخر لا ينكر وقوع المجـــاز فى اللغة ولكنه ينكر بشدة وقوعه فى القرآن الكريم ... انظر الخصائص لابن جنى ٢ / ٤٤٧ ، وما بعدها ، وراجع المزهر للسيوطى ١ / ٣٦٤ ، والإتقان للسيوطى ٢ / ٣٦ .

مرجعه النظر إلى أصول دلالات الألفاظ وتفريعاتها فى الأعم ، فمن نظر إلى أصول الألفاظ يتبين له المجاز فى الفروع ، ومن نظر إلى الفروع وما آلت إليه دلالة الألفاظ يرى أنها الحقائق التى لا مجاز وراءها ، ولكن قد غاب عن كلتا النظرتين أمر مهم كان ينبغى الاحتكام إليه وهو أن اللغة – كناطقيها – يتوالد بعضها من بعض ، وتكتسب دلالات جديدة كلما دعت الحاجة إلى ذلك وليست هذه الدلالات الجديدة فى الأكثر منفصمة الحلقات عن الدلالات الأصلية ، بل هى من نتاجها أو إن شئت فقل هى بناتها ، وبينها وبين أمها نسب عريق ، والدليل على ذلك انضواء الدلالات جميعها تحت معنى عام لا تكاد تنفصل عنه ، وكذلك فإن دلالة اللفظ مرتبطة به مفردا وإن أعطى أحيانا دلالة عامة يترك تخصيصها للسياق ، وليس كذلك المجاز الذى هو مجاز [1] .

ولنأت إلى بعض الأمثلة الموضحة لترابط الدلالة منذ بداوتها وحتى حضارتها ، مما يفهم أنها فى تقلبها وتداولها لسان صدق للحقيقة اللغوية ، فخذ مثلا : كلمة " الشرف " فأصل الشرف الارتفاع والنظر إلى الناس والأشياء من فوق ، وسميت " الشرفة " فى البيت أو القصر كذلك لارتفاعها ولكون الواقف فيها يشرف ، أى يطل على ما تحتها ، وانتقل الإشراف مع المحدثين خاصة من هذا المعنى الحسى إلى المعنى التجريدى الفكرى كالإشراف على البحوث العلمية أو التلاميذ فى المدارس ، أو الإشراف الاجتماعى ونحوهما ، ثم تجرد المعنى أكثر فأكثر حتى أصبح الشرف هو مجموع صفات بعضها بالنسب وبعضها بالحسب ، تجعل الإنسان معنويا فى منزلة أرفع من غيره [2] .

---

(1) أعنى الذى هو اصطلاح بلاغى القائم على فكرة النقل والقرينة والعلاقة ، أما ما يعرف بالمجاز اللغوى فإنه – كما سأبين بعد – اصبح جزءا من الحقيقة اللغوية .

(2) اللسان والإنسان ، د / حسن ظاظا ، ص ٨٧ .

وقد أذنت بإنصات لبعض الباحثين وهو يربط بين دلالتى الجمل والجمال ، والناقة والأناقة فى مبحث من كتابه تحت عنوان : آثار حيوانية فى لغتنا ، قال عن واحد من هذه الآثار وهو " الجمال " معناه معروف ولو أن تعريفه من أعوص المشكلات ، فمن الجمال : التجمل والتجميل ، أى التزين والتزيين ، وقد توسع المعنى فى عصرنا هذا فصار أبعد مدى من مجرد التزيين ، أى التجميل السطحى الذى يزول بغسل الوجه أو خلع الثوب ، ومن هذه الكلمة أيضا المجاملة ، أى معاملة الناس بالجميل ولا يفزعن القارئ الكريم مما سأقول هنا أيضا ، فإن الناقة قد تبعها إلى صميم حياتنا ، نعم إن الجمال مشتق من الجمل ، – أى البعير – كان العرب قد عرفوا للجمل فضيلة الصبر ، الصبر على الجوع والعطش وعلى الهجير وشتى أنواع المشاق ، لهذا شبهوا به الرجل الصابر ، وأعتقد أنهم قالوا أولا : تجمل فلان ، بمعنى صبر صبر الجمل ، أى أشبهه ، ومثل ذلك قولهم : تنمر بمعنى أشبه النمر ، وظل يعنى التجلد أحقابا طوالا عند العرب كما يتضح مما وصلنا من قديم شعرهم ونثرهم ، وكان التجمل : أى التصبر ، من الشيم المستحبة فى المثالية العربية ، وكان من شرائطه أن يكظم المحزون حزنه عند الثكل ، وأن يخفى الفقير فقره ، وكان من جملة مظاهر هذا التجمل أن يلبس الفقير أحسن ما عنده ، وأن يخلع المحزون عنه ثوب الحداد ، وعن طريق هذه الثياب التجلدية انتقل معنى التجمل من التصبر إلى التزين ...

ولما كانت صيغة التفعل تعنى التصنع أو التشبه ، فقد ظنوا أن أصل الفعل المجرد هو (جمل يجمل) ..... وما دروا أن الأجيال السالفة التى بدأت المشروع لم تفهم من التجمل سوى التشبه بالجمل فى الصبر والاحتمال ثم إنهم

اشتقوا الجمال – وزان الكمال – ..... وهكذا يستحوذ الجمل علـــى أجمـــل كلمة فى القاموس [1] .

وهكذا استقرت هذه الألفاظ فى نهاية الأمر على معان ثابتة لا يتكلـــف السامع – لها بحثا عن الأصلى فيها والفرعى ، لأنها أصبحت حقـــائق ضربـــة لازم ، لأن الفروع تحيزت عن الأصل بصيغ ، وارتبطت كل صيغة منها بدلالـــة أما ما لم يتحيز بصيغة ، ودل بصبغته الأصلية على معنى ليس هو معنى الصبغـــة الأصلية ، فذلك هو المجاز اللغوى ، غير أنه – أى المجاز اللغوى – يصبح جـــزءا من الحقيقة اللغوية بكثرة تداوله واستعمالها ، " فكثير من الدلالات التى كـــانت سائدة شائعة فى العصر الجاهلى قد أصابها البلى ولم نعد نراهـــا إلا فى المعـــاجم كرموز متحفية تشبه ما نراه فى المتاحف من قطـــع خزفيـــة لم تعـــد صالحـــة للاستعمال : أى أن أسمى درجات الجدة والطرافة فى الاستعمال مـــا يســـمى بالمجاز ، ثم تتقلص تلك الجدة مع الزمن ويؤول أمرها إلى الألفة والذيوع [2] .

ولنقف مع بعض الأمثلة التى ذكرها " الإمام الزمخشرى " لننظر مـــاذا بقى من دلالات المادة واشتهر مما ذكر من حقيقتها ومجازيها ؟ قـــال فى مـــادة " حبط " : حبط بطنه : انتفخ حبطا ، ومن المجاز : حبط عمله ، وأحبـــط الله عمله [3] .

وفى مادة " حذق " قال : حذق السكين : قطعه ، ومن المجاز : حـــذق القرآن : أتم قراءته وقطعها ، وحذق فى صناعته ، وهو حاذق فيها [4] .

---

(1) باختصار من كتاب مغامرات لغوية ، للأستاذ عبد الحق فاضل ، ص ٦٠ ، وما بعدها .

(2) انظر دلالة الألفاظ ، د / إبراهيم أنيس ، ص ١٣٢ .

(3) أساس البلاغة للزمخشرى ، ص ٧٧ ، ط دار المعرفة ، بيروت .

(4) المرجع السابق ، ص ٧٨ .

وفى مادة " حصف " قال : فى وجهها كلف وفى جلدها حصف : وهو بثر صغار ، ومن المجاز : فيه حصافة : وهو ثخانة العقل والرأى ..... [1] .

وفى مادة " حقن " قال : حقن اللبن فى السقاء : جمعه ، وهو المحقن وسقاه الحقين ، وهو اللبن المحقون ، ومن المجاز : حقنت دمه ، إذا حل به القتل فأنقذته ... [2] .

وفى مادة " خرص " قال : خرج الخراصون يخرصون النخل ، وكم خرص أرضكم بالكسر ، أى خرص فيها ، وقطع خرصان الشجر : أى قضبانها .

وكان خرصان الرماح كواكب

أى أسنتها ، ومن المجاز : (قتل الخراصون) أى الكذابون [3] .

فما ذكره الإمام "الزمخشرى" صدرا – على أنه الحقيقة اللغوية للمادة – لم يعد متداولا ولا مستعملا بصورة مطردة ، وما ذكره كسعا – على أنه المجاز اللغوى لها – هو المتداول والمستعمل باطراد ، حتى لم تكد الأذهان تلتفت إلى غيره ورسخ فى عقول الكافة على أنه الحقيقة اللغوية .

ولم يكن "الزمخشرى" جاهلا أو متجاهلا – كما وصفه الدكتور أنيس – حين عرض للحقيقة والمجاز فى معجمه أساس البلاغة ، فيقول " الدكتور انيس " عقب هذا الاتهام : " ففى رأيه – يعنى الزمخشرى – أن الكتابة والقراءة والخلق والهجاء كلها من المجاز ، ويقول إن الدلالة الحقيقية للفعل " كتب " هو فى مثل " كتب السقاء أى خرزه بسيرين " .. هو إذن يفترض أن العرب قد عرفوا من

---

(1) السابق ص ٨٥ ، وما بعدها .

(2) السابق ص ٩١ .

(3) السابق ص ١٠٧ .

الكتابة خرز السقاء قبل أن يعرفوها بمدلولها الشائع الآن ، وتلك قضية ليس من اليسير البرهنة عليها مع علمنا بشيوع الأمية لدى العرب القدماء [1] .

والعجيب أن الدكتور أنيس نفسه قد برهن على ذلك من قبل حين ولى وجهه نحو التطور الدلالى ، وحين قال : يجمع الباحثون فى نشأة الدلالة على أنها بدأت بالمحسوس ، ثم تطورت إلى الدلالات المجردة بتطور العقل الإنسانى ورقيه ، فكلما ارتقى التفكير العقلى جنح إلى استخراج الدلالات المجردة وتوليدها [2] .

فهل كان من العلم – الذى هو ضد الجهل – أن يرى الزمخشرى أن الكتابة بمعناها الشائع الآن سابقة لكتب السقاء ؟ إذا : فما رأى الدكتور " أنيس " إذا علم أن الزمخشرى قد رأى ذلك فعلا ، ولنعد مرة أخرى إلى الأساس – ونحن كما علمنا من قبل يذكر الزمخشرى عقب المادة اللغوية معناها الحقيقى ثم يفرغ بعدها إلى ذكر المجاز – فهو يقول فى مادة " كتب " : كتب الكتاب يكتبه وكتابا وكتبا ، واكتتبه لنفسه : انتسخه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى قوله : ومن المجاز : كتب عليه كذا : قضى عليه .. وهذا كتاب الله : قدره ، قال الجعدى :

يا بنت عمى كتاب الله أخرنى

عنكم وهل أمنعن الله ما فعلا

وكتب النعل والقربة : خرزها بسبرين ، وقارب بين الكتب وهى الخرز ، وأكتب سقاءه : أوكأه ..... [3] .

---

(1) راجع دلالة الألفاظ ، د / إبراهيم أنيس ، ص ١٣٢ .

(2) المرجع السابق ، ص ١٣٢ ، وانظر ص ١٦١ .

(3) أساس البلاغة ، ص ٣٨٦ .

فإن كان هذا هو الصواب الذى يريده الدكتور أنيس فقد خالف الإجماع الذى ذكره عن الباحثين فى نشأة الدلالة ، وكان الأصوب ألا يذكر الزمخشرى كتب النعل والقربة فى المجاز فإن ذلك بالفعل هو الدلالة الحسية الحقيقية ثم إننا كيف نتصور مع الدكتور أنيس تعدد الدلالة الحقيقية بوسيلة وهمية ، يراها فى انحراف اللفظ من مجاله الحقيقى إلى مجال مجازى ، ثم يشيع ذلك المجاز حتى يصبح مألوفا ويعد حينئذ من الحقيقية ؟ [1] . فالذى نتصوره ونعلمه هو أن اللغة تتوالد ، وتتكاثر بهذا التوالد لا بغيره ، تلد الأمهات الطبيعية جيلا من الألفاظ الحسية ، ثم تتحول إلى أمهات لتلد الألفاظ المعنوية وتتألف فى اللغة من هذه الوالدات والمولودات جميعا من الأجيال الحقيقية التى تخلف توأمين من المجاز ، يأخذ الأول منهما مكان أمه فى اللغة أحيانا وهو المجاز اللغوى ، ويظل الثانى – وهو المجاز البلاغى – متنقلا بين تراكيب اللغة يصنع منه الشعراء والأدباء لوحات فنية تستلفت الأحداق وتستهوى الأذواق ، ويظل كذلك معينا تستمد منه اللغة نموها وتستكثر منه فروعها ، كلما تناهت الأصول اللفظية أمام معان لا تنتهى ، فنضج على إثر ذلك " علم البيان " الذى استأثر به علماء البلاغة ، ومكانه الطبيعى – كما كان قبل نضوج علم البلاغة – فى فقه اللغة ، فمظاهره كلها من استعارة وكناية ومجاز ، وغير ذلك استخدام للفظ العربى فى غير ما وضع له مع إيضاح العلاقة وبيان القرينة ، ولولا ذلك المعين ما كان لنا أن نتلذذ بشعر ولا أن نستمتع بحكمة ، وروعة المجاز بأنواعه أن يرتد بالسامع من خلال التركيب البيانى إلى المحسوسات ليعطى صورة مجسمة للمعنويات ، مثلما فعل " قربط بن أنيف " الذى صور الشر بصورة سبع صائل مكشر عن أنيابه وذلك فى قوله [2] :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه ذرافات ووحدانا

---

(1) انظر دلالة الألفاظ ، د / أنيس ، ص ١٣٢ .
(2) انظر شرح ديوان الحماسة لأبى تمام ، ١ / ٨ .

ومثلما صنع " الكلحبة اليربوعى " الذى صور الأمن بخيمـــة تتقطـــع حبالها إذا ركن ساكنها إلى الدعة واختار الراحة ، وذلك قوله [1] :

إذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت

حبال الهوينى بالفتى أن تقطعا

وأنعم النظر فيما نظم " البحترى " فى وصف الرياض وما صنع الربيـــع بها فى قوله [2] :

وقد ذبه النيروز فى غلس الدجى أوائل وردكن بالأمس نوما

يفتقه برد الندى فكانه يبث حديثا كان قبل مكتما

ومن شجر رد الربيع لباسه عليها كما نشرت وشيا منمنما

ولذلك يوصى الخليفة الأموى " معاوية بن أبى سفيان " رضى الله عنـــه أصحابه بقوله : اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم فإن فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم ، فلقد رأيتنى يوم الهرير وقد عزمت على الفرار فما يـــردنى إلا قول ابن الإطنابة الأنصارى [3] :

أبـت لى عفتـى وأبـى بلائـى وأخذى الحمد بالثمن الربيح

واجشامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح

وقولى كلما جشات وجاشـــت مكانك تحمدى أو تستريحى

---

(1) انظر شرح المفضليات للتبريزى ١ / ٦٠ .

(2) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ٦ / ٢٦٤ .

(3) انظر الكامل فى اللغة والأدب ، لأبى العباس المبرد ، ٢ / ٢٩٣ .

وهكذا يصبح " المجاز هو الأداة الكبرى من أدوات التعبير الشـــعرى ، لأنه تشبيهات وأخيلة وصور مستعارة وإشارات ترمـــز إلى الحقيقـــة المجـــردة بالأشكال المحسوسة ، وهذه هى العبارة الشعرية فى جوهرها الأصيل [1] .

وهكذا أيضا ظل التوالد اللغوى فى العربية حتى تجاوز ما عرف لـــدى العلماء بعصور الفصاحة ، بل حتى تجاوز حدود المكـــان باســـتنطاق اللغـــات الأعجميات والتوليد منها على طريقة العربية فى البناء من أمـــهات ألفاظـــها ، وهذا ما سوف يكشف عنه حديث المبحث التالى :

---

(1) انظر اللغة الشاعرة للعقاد ص ٤٠ .

المبحث الثالث : المولد والمعرب

قال السيوطى : المولد هو ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم [1]

وقال "الخفاجى" : " واعلم أن التعريب نقل اللفظ من العجمية إلى العربية [2] .

وليس من أهداف البحث أن يناقش قضية السماع والقياس فى المولد والمعرب ، وإنما الهدف أن أستدل بهما على أن التوليد فى العربية لم يتوقف عند حدود زمانية أو مكانية ، ولم ينتظر حتى يسمح الباحثون بمثوله أو لا يسمحون ، فقديما قال ابن سيده الأندلس : " اللغة اضطرارية وإن كانت موضوعات ألفاظها اختيارية " [3] .

كما أنه يستدل بهما على حدوث أطوار تستوجب حدوث ألفاظ فى اللغة يوسم بعضها بالمولد إذا كان من جنس العربية ، ويوصف بعضها الآخر بالمعرب إذا لم يكن من جنسها ،ولا مشاحة فى هذا الوسم ولا فى ذاك الوصف ، إذ هما قبل ذلك وبعده توليد لغوى ، فالمولد منهما عربى ، والمعرب فيهما أجنبى دخيل ، استدعتهما حاجة اجتماعية [4] .

ومن أمثلة المولد التى احتوتها المراجع اللغوية ، (عن الفارسى : " وأما قولهم فى ذى الروح نفسانى فمولد " [5] ، وعن ابن سيده : الشذر : قطع من الذهب ، وقيل هو خرز يفصل به النظم ، واحدته شذرة وجمعه شذور ، شذرت النظم : فصلته ، فأما قولهم : شذر كلامه بشعر فمولد [6] ، وعن " ابن دريد " : خمن الشئ – أخمنه خمنا وخمنته : قلت فيه بالحدس – قال :ولا أحسبه إلامولدا [7] .

---

(1) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ١ / ٣٠٤ .

(2) شفاء الغليل فيما من كلام العرب من الدخيل ، لشهاب الدين الخفاجى ، ص ٢٣ .

(3) المخصص ١ / ٣ .

(4) والحاجة الاجتماعية أعم من أن تكون جوهرية ، فقد تكون عرضية ، خاصة فيما يتصل بالمعرب ، والمعرب رغم صيرورته عربيا بتعريبه إلا أنه ما زال فى رأيى دخيلا ، لأنه ليست له جذور عربية ولا يحول ذلك دون تبنيه وإجراء أحكام العربية عليه .

(5) المخصص لابن سيده ٢ / ٦٢ .

(6) المرجع السابق ٤ / ٥١ وما بعدها .

(7) السابق ١٣ / ٢٦ .

وقال فى الجمهرة : كان الأصمعى يقول : النحرير ليس من كلام العرب وهى كلمة مولدة [1] ، وقال " أبو عبيد " فى الغريب المصنف : الجبرية خلاف القدرية ، وكذا فى الصحاح ، وهو كلام مولد [2] .

فأمثلة المولد كثيرة ، ولا ضير ألا يستشهد بها علماء القواعد ، فهذا حقهم ولا اعتراض عليهم ، ولا يجوز لأحد من المحدثين أن يصفهم بالتعنت ، لأنهم لم يمنعوا الاستشهاد بالمولد والمولدين إلى الأبد ، فهم يعلمون - وهذا ابن قتيبة يعبر عما فى نفوسهم - أن الله عز وجل لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا بين عباده فى كل دهر [3] .

وفى مجال النقد رأوا - كما ذكر المبرد - أنه " ليس لقدم العهد يفضل القائل ولا حدثان عهد يهتضهم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق " [4] .

ولذلك ردف بعض العلماء بعضا فى التوجه إلى أشعار المولدين ، بدءا بالاستشهاد للمعانى وانتهاء بالاستشهاد للألفاظ ، فقد احتج " أبو العباس المبرد " بشئ من شعر حبيب بن أوس الطائى فى كتابه فى الاشتقاق ، لما كان غرضه معناه دون لفظه [5] .

---

(1) انظر المزهر للسيوطى ١ / ٣٠٤ ، وما بعدها .
(2) المرجع السابق .
(3) انظر له : الشعر والشعراء / ٦٣ ، تح شاكر .
(4) الكامل للمبرد ١ / ١٨ .
(5) انظر الخصائص لابن جنى ١ / ٢٤ ، وما بعدها .

واستشهد " ابن جنى " بشعر المتنبى كثيرا ، وقال : ولا تستنكر ذكـــر هذا الرجل – وإن كان مولدا – فى أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه ولطف متسربه ، فإن المعانى يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدمون ..... [1] .

وجاء " الزمخشرى " وقدم سابقة ممتازة واعتمد فى تقرير أحكام اللفـــظ على شعر " أبى تمام " وقال : وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغـــة فهو من علماء العربية فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ..... [2] .

ونحا هذا النحو العلامة " الرضى " فقد استشهد بشعر " أبى تمـــام " فى عدة مواضع فى شرحه لكافية " ابن الحاجب " ، وجرى على هـــــذا المذهـــب " الشهاب الخفاجى " فقال فى شرح درة الغواص : أجعل ما يقوله المتنبى بمنزلـــة ما يرويه [3] .

والعجيب من شراح الشواهد بعد ذلك ، يرون – وكـــأنهم يعلمـــون الغيب – أن استشهاد العلماء بأشعار المولدين هو من قبيل التمثيل لا للاحتجـــاج ، فقد استشهد العلامة "الرضى" على إجراء غير مجرى "ما" بقول "أبى نواس" [4] :

غير ماسوف على زمن ينقضى بالهم والحزن

فيقول " البغدادى " شارح شواهد الكافية : وهذا البيت لأبى نـــواس ، وهو ليس ممن يستشهد بكلامه ، وإنما أورده الشارح مثالا للمسألة [5] .

---

(1) المرجع السابق .

(2) انظر خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٧ ، وراجع كشاف الزمخشرى ١ / ٤٢ .

(3) انظر القياس فى اللغة العربية للشيخ محمد الخضر حسين ، ص ٣٦ .

(4) انظر شرح كافية ابن الحاجب للرضى ١ / ٨٧ .

(5) خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٣٤٦ .

وقد كنت فى غنى عن هذا الاستطراد المختصر ، إلا أنه لم يك مفر منه حتى نتبين أن هذا المولد عربى وليس قسيما له ، وإلا ما اتجه إليه بعض العلماء مستدلين به على المعانى مرة وعلى الألفاظ مرة أخرى ، وندفع به ما نقله " السيوطى " عن " الفارابى " قوله فى ديوان الأدب : يقال هذه عربية وهذه مولدة [1] .

وحتى يتضح لنا كذلك أن كلمة مولد لم تكن تعنى فى ذهن العلماء ممن منعوا الاستشهاد به خاصة " أكثر من أنها كلمة جديدة أو تركيب جديد ، ولذلك لما ذكر صاحب الخزانة عن العلماء تقسيم طبقات الشعراء ، قال عن الطبقة الرابعة المولدون ، ويقال لهم المحدثون [2] .

ولعل القول السائر بأن المعاصرة حجاب قد طبق لدى بعض العلماء تطبيقا حادا حتى عد جرير والفرزدق عند أبى عمرو بن العلاء من المولدين [3] ، وخلف أبا عمرو الأصمعى ، وعد الكميت والطرماح من المولدين [4] .

ومهما يكن من أمر فإن حكم العلماء على لفظ ما بالمولد حكم خاص بهم ، إذ هو منوط بمحفوظاتهم من اللغة ، وليس فى وسع أحد من العلماء أن يعرف كل شئ فى اللغة ، ومن الجائز على من يرى المولد فى بعض الألفاظ أن يجانبه الصواب ، فلقد ذكر " الفيروزابادى " صاحب القاموس المحيط : " أن

---

(1) المزهر للسيوطى ١ / ٣٠٤ . ولعل الفارابى يعنى بهذا القول أن تلك عربية أى من قول العرب الذين يحتج بهم فى اللغة ، وهذه مولدة ، أى من قول من لا يحتج بهم فى اللغة ، كما نسمع كثيرا قول العلماء " ليس من كلام العرب " أى ليس من كلام الفصحاء المحتج بهم ، فهم لا يقصدون أنه كلام دخيل على لغة العرب .

(2) خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٦ .

(3) المرجع السابق .

(4) انظر مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ص ١١٨ ، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم .

قول الجوهرى عن ابن دريد : أن الأصمعى كان يقول : الجنس : المجانسة من لغات العامة ، غلط ، لأن الأصمعى واضع كتاب الأجناس وهو أول من جاء بهذا اللقب [1] .

كما أن بعض ما قيل إنه مولد يسود ويمحو ما قيل إنه عربى فصيح ، قال " المبرد " : " والحاج جمع حاجة .. فأما قولهم فى جمع حاجة : حوائج فليس من كلام العرب على كثرته على ألسنة المولدين ولا قياس له [2] .

وفى الصحاح : كان " الأصمعى " ينكر جمع حاجة على حوائج ، ويقول : مولد [3] .

فهل السائد فى المجتمع اللغوى حاج أو حوائج ؟ وهل تمت صياغة المولد بمنأى عن سنة العربية فى توليد ألفاظها ؟

إن وصف المولد بالمولد لبرهان على قوة التوالد فى العربية ، إذ مرجع المولد معظمه إلى ميزة الاشتقاق فيها ، فقولهم : رقيع – وقد قال ابن دريد عنها إنها كلمة مولده [4] . – أصلها العربى الفصيح ماثل فى اللغة ومثلها : شاة صارف ، إذ أرادت الفحل ، قال " أبو على " : هى مولدة [5] .

وما لم نجد له أصلا عربيا فصيحا ، فإن المولد حينئذ محدث فعلا ويكون هو نفسه أم فروعه التى سينشئها الاشتقاق والتصريف فى العربية ، فمن ذلك

---

(1) انظر تركيب القاموس المحيط للزاوى ١ / ٥٤٠ وراجع المزهر ١ / ٣٠٥ .

(2) الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ١ / ١٦٥ .

(3) انظر المزهر للسيوطى ١ / ٣٠٧ .

(4) انظر المخصص لابن سيده ٤ / ٨٩ .

(5) المرجع السابق ٧ / ١٧٧ .

الطفيلى : قيل لغة محدثة لا توجد فى العتيق من كلام العـــرب ، كـــان رحـــل بالكوفة يقال له طفيل يأتى الولائم من دون أن يدعى إليها فنسب إليه [1] .

فرحم الله هذا الرجل فلولاه ما أدركنا هذا المعنى ، وما عرفنا فى اللغـــة الفعل تتطفل ولا اسم الفاعل متطفل .

ومثله أيضا : خرافة يقولون لما يستملحونه : حديث خرافة ، زعموا أن خرافة رجل من العرب كان من بنى عذرة ، فاستهوته الجن فلبث فيهم زمانـا ثم رجع إلى قومه وأخذ يحدثهم بالأعاجيب التى رآها فضرب به المثل [2] ، ومنـــه أخذ خرف ، وخرافات ، وأخذ حديثا تخـــاريف ، وقـــال " ابـــن دريـــد " : الشعوذة : السرعة ، ولا أحسب الشعوذة من كلام أهـــل البادية [3] ، وفى اللسان : الشعوذة : خفة فى اليد وأخذ كالسحر يرى الشئ يغر ما عليه اصلـــه فى رأى العين [4] .

ولعل هذا مولد من اسم رجل أيضا اشتهر بالدجل والسحر وخفة الحركة .

فهذا ومثله عائد إلى سر فى العربية أشهر من العلانية وهو قدرتها علـــى التوليد من أمهات هى أصول المبانى ، ويعود إليها كل أو جل ما خلفتـــه مـــن فروع المعانى ، ولم تقف العربية عند حدود الاشتقاق من أصول كلامها ، بـــل عربت ما وقع إليها من لغات أعجمية ، واشتقت من الألفاظ الأعجمية كمـــا تشتق من أصول كلامها [5] .

---

(1) انظر المزهر للسيوطى ١ / ٣٠٧ ، وما بعدها .

(2) انظر تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكى الصقلى ، ص ٣٦٤ ، وما بعدها .

(3) انظر المخصص لابن سيده ٣ / ٨٢ .

(4) انظر لسان العرب لابن منظور ٤ / ٢٢٧٢ .

(5) انظر الخصائص لابن جنى ١ / ٣٥٨ .

ومعنى ذلك أن العربية تبنت من مواليد غيرها وصبغته بصبغتها حتى لم يعد هناك صلة بين هذه المعربات وبين أصلها الأول الذى هى منه ، " فهى عجمية باعتبار الأصل، عربية باعتبار الحال "، كما ذكر الجواليقى فى المعرب [1] .

وهذا ما جعل العلماء قديما يختلفون فى وجود المعرب فى القرآن الكريم بين مانع ومجيز ، واستطاع " أبو عبيد " أن يوفق بين الرأيين ، إذ رأى أن هذه الحروف وأصولها عجمية ، إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال إنها عربية فهو صادق ، ومن قال عجمية فهو صادق [2] .

ورأى " السيوطى " فى وجود المعربات فى القرآن أن " هذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ فى القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شئ ، فلابد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شئ ، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب [3] .

ثم سرد " السيوطى " الألفاظ الواردة فى القرآن من المعرب مرتبة ، فمنها : أباريق حكى الثعالبى فى فقه اللغة ، وأبو حاتم اللغوى فى كتاب الزينة أنها فارسية ، وقال الجواليقى : الأبريق : فارسى معرب ، وترجمته من الفارسية أحد شيئين : إما أن يكون طريق الماء ، أو صب الماء على هينة [4] .

---

(1) انظر المزهر للسيوطى ١ / ٢٦٩ .

(2) انظر الصاحبى لابن فارس ص ٢٩ .

(3) المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب للسيوطى ، ص ١٤ تح د / إبراهيم أبو سكين .

(4) المرجع السابق .

ولكن ينبغى الحذر من إطلاق المعرب على بعض ألفاظ اشتبه العـــرب فيها بالعجمى ، فتوافق الاشتراك فى الألفاظ بين لغتين أو أكـــثر أمـــر جـــائز ووارد ، فأم اللغات جميعا واحدة ، فقد يبدو لبعض المستعجمين من البـــاحثين العرب أن يرى العربية دائما مستعيرة من غيرها مثلما رأى " جورجى زيـــدان " حيث قال : " هذا ولا يخفى علينا أن قسما عظيما من الأفعال العربية أصلـــها أسماء جامدة ، ربما كانت فى الأصل أعجمية معربة [1] .

وهذا قول اعجمى يوشك أن يجعل العربية عقيما لا تنجب ، وقد قامت الأدلة الصادعة على أن العربية أم اللغات فى التشتيق والتوليد .

أما أن العربية عربت بعض الأعجميات فليست فى هـــذا بدعـــا مـــن اللغات ، فكل اللغات تقترض من غيرها ، ولكن ميزة العربية أنها تـــترل جـــل المقترض على أحكامها ، حتى تجعله بعد ذلك صالحا لأن يشتق منـــه كـــالعربى الأصيل فيها ، فقد حكى " الفراء " : جنقناهم ، وزعم أن المنجنيق مولـــدة أى أعجمية ، وهم إذا اشتقوا من الأعجمى خلطوا فيه لأنه ليس مـــن كلامـــهم ، فقولهم : جنقونا ، وقول الأعرابى : كانت بيننا حروب عون تفقأ فيها العيـــون ، مرة نجنق وأخرى نرشق " من معنى منجنيق لا من لفظه .. " [2] .

كما نراهم " قالوا فى اللجام – وهو معرب : لغام – جمعـــه : لجـــم ، وتصغيره : لجيم ، ويشتق منه الفعل أمرا وغيره ، فتقول : ألجمه ، وقد ألجمـــه ، ويؤتى للفعل منه بمصدر وهو الإلجام ، والفرس ملجـــم ، والرجـــل ملجـــم ، ويستعمل الفعل منه على صيغة أخرى ، ومنه ما جاء فى الحديث من قوله للمرأة

([1]) انظر الفلسفة اللغوية ص ١٠٨ ، وما بعدها .

([2]) انظر شرح الشافية للرضى ٢ / ٣٥٠ .

استثفرى وتلجمى ، فهذا تفعل من اللجام ، ويتصرف فيه أيضا بالاستعارة ، ومنه الحديث : التقى ملجم ، فهذا من إلجام الفرس ، شبه التقى به لتقييد لسانه وكفه ، وتكاد هذه الكلمة – أعن لجاما – لتمكنها فى الاستعمال وتصرفها فيه تقضى بأنها موضوعة عربية لا معربة ولا منقولة لولا ما قضوا به من أنها معربة من " لغام " [1] .

فالمعرب – كما المولد – يثبت قطعا حيوية العربية وقدرتها على استيعاب ما فى غيرها ، ثبت ذلك قديما فى عنفوان الحضارة الإسلامية ، فكلنت لغة الدين والعلم بجميع فروعه ، وتلاشت بجانبها لغات كانت لسان أمم عريقة اعتنقت دين العروبة فتحولت ألسنتها كما تحولت عقائدها ، وما زالت فى عصرنا الحديث تمتلك نفس الوسائل التى كانت تمتلكها مذ كانت ، وإن وصفت لغة ما بالهرم والعقم فلن تكون العربية ، ومن ثم فإن توالدها فى هذا العصر – وتبنيها أيضا – أصبح أوجب من ذى قبل لما سأبينه فى خاتمة البحث الآتية .

---

(1) مختصرا من كتاب المزهر للسيوطى ١ / ٢٨٨ ، واستثفر : تزر بثوبه ثم رد طرف إزاره من بين رجليه فغرزه فى حجزته من ورائه – انظر المصباح المنير للفيومى ١ / ٨٢ .

خاتمة البحث

ضرورة التوالد فى العصر الحديث

لقد استشرت فى العصر الحديث علوم المادة ، وأضحى لكل علم فيها فروع متنوعة ولكل فرع مصطلحات جمة لا تحصى بالعشرات أو المئات فحسب بل بالألوف أحيانا ، وقد قصدت علوم المادة خاصة ، لأن العلوم النظرية لا تمثل تحديا للعربية فإنها غنية بمصطلحاتها ، ولأنها من ناحية أخرى محل بحث منذ قرون خلت إلى اليوم ، وليس واجبا على مرتاد هذه العلوم النظرية إلا المحافظة عليها وابتكار أحدث الوسائل لتلقينها وتعليمها ، واتباع أفضل السبل التربوية لتنميتها .

أما العلوم التجريبية فى العصر الحديث فقد استفحل أمرها وتمثل تحديا خطيرا للفصحى ، نعم ، كان للعربية تجربة عظيمة مع هذه العلوم فى عصر الحضارة العربية الإسلامية ، فقد كانت لسان الطب والفلك والرياضيات وما إلى ذلك من علوم ، حتى نقل " ابن النديم " عن " جابر بن حيان " أنه ألف كتبا عدة فى الفلسفة وآلات الحرب والطب والتشريح ..... [1] .

ونقل عن " الرازى " أنه ألف فى المنطق والكيمياء والطب ، وله فى الطب كتاب الحاوى ويسمى الجامع الحاصر لصناعة الطب وقسمه أقساما منها لعلاج المرضى والأمراض ، وحفظ الصحة ، وفى الرئة والجبر والجراحات وفى الأدوية والأغذية ... وهلم جرا [2] .

وعرف العرب الهندسة ، قال صاحب مفاتيح العلوم : وأما الهندسة فكلمة فارسية معربة ، وهى بالفارسية " إندازه " أى المقادير ، قال " الخليل "

---

(1) الفهرست لابن النديم ، ص ٤٢٠ ، وما بعدها .

(2) المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .

المهندس الذى يقدر مجارى القنى ومواضعها حيث تحتفر وهو مشتق من الهندزة وهى فارسية فصيرت الزاى سينا فى الإعراب ، لأنه ليس بعد الدال زاى فى كلام العرب [1] .

ولكن هذه العلوم التجريبية الآن قد تمخض كل علم منها عن فروع كثيرة ، كما هدت من بعد إلى ابتداع علوم كثيرة لم تكن من قبل ، وهى بلا شك علوم لا غنى عنها لأمة تنشد لنفسها الحياة العزيزة بل هى المقياس الدقيق الذى يحتكم إليه فى تصنيف الأمم إلى أمم متخلفة وأمم راقية ، فما موقف العربية إذا من هذا السيل الجارف لمصطلحات العلوم ومبتكرات الفنون ؟

إن بعضا من المجتمعات العربية قد خيل إليه أن العربية غير قادرة على استيعاب هذه العلوم والفنون ، فارتأى أن تحصل فائدة هذه العلوم والفنون باللغة الأجنبية – الإنجليزية على وجه خاص – بل إن بعضا من الأصوات المنكرة المجهولة كان قد اقترح تحويل حروف العربية إلى اللاتينية لتسهيل نقل هذه العلوم من مصادرها بل إن كل مجتمعات العروبة انطلقت إلى تعليم أبنائها هذه اللغات الأجنبية بدرجة تركيز وإتقان تفوق درجة لغتها القومية ولا بأس من ذلك التعليم ولكن لا يكون على حساب إهمال لغتنا العربية .

إلا أن موقف العربية حديثا ينبغى أن يقاس بموقفها قديما ، فإن لها تجربة مع مثل ذلك الآن منذ بزوغ شمس الحضارة الإسلامية فجميع الدارسين والباحثين أجمعوا على أن العربية كانت لسان العلم قديما ، وهذا أمر معروف غير محتاج إلى تكرار ، وما دام الأمر كذلك فإنها صالحة لأن تكون لسان العلم حديثا ، وأكدت دراسات علمية حديثة على هذه الصلاحية [2] .

---

(1) مفاتيح العلوم ، للشيخ محمد أحمد الخوارزمى ص ١١٧ .

(2) انظر العربية لغة العلوم والتقنية ، د / عبد الصبور شاهين ، ص ١٥ ، وما بعدها .

و لكن – والعربية أمام هذا الطوفان من الاصطلاحات – ينبغـــى أن ندرك ضرورة التوالد والتبنى للعربية فى العصر الحديث ، وإن وسائل التوالـد – بحكم أنها لغة اشتقاقية – موجودة وستظل ، وقد علمنا أنها ولدت من الألفـاظ الطبيعية ألفاظا ، وولدت من أسماء الأعيان – وهى توصف بالجمود – أوزانا – وولدت من الأعجمى نفسه صيغا ، وكأن القدمين الذين فعلوا ذلك يقولون لنـا فى عصرنا هذا اصنعوا مع العربية كما صنعنا ، واجعلوها لغة التقنية فى عصركم كما جعلنا وانقلوا إليها مما جاورها من لغات أعجميـــة مـا تحتـاجون مـن مصطلحات كما نقلنا ، لقد سبقناكم إلى هذا المضمار فاتبعوا آثارنـــا ، حـتى لا تتهم العربية من قبلكم بالجمود ، وأنتم فى الحقيقة حينئذ المتهمون ، وعـــن مزية التوالد فيها غافلون .

" تم البحث "

" والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب "

أهم مراجع البحث

١- الدكتور / إبراهيم أنيس .
دلالة الألفاظ / طبعة الأنجلو المصرية /القاهرة ط /الخامسة ١٩٨٤ م .

٢- ابنى جنى (أبو الفتح عثمان)
- سر صناعة الإعراب / تح / د . حسن هنداوى ط / دار القلـــم / دمشق / الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- الخصائص / تح / الشيخ محمد على النجـــار ، ط عـــالم الكتـــب ببيروت الثالثة ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م .

٣- ابن خلدون (عبد الرحمن)
مقدمة ابن خلدون / طبعة دار الشعب / بالقاهرة .

٤- ابن سيده (أبو الحسن على بن إسماعيل)
المخصص / تح / لجنة إحياء التراث العربى ، نشر دار الآفاق الجديـــدة ببيروت / بدون تاريخ .

٥- ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسى)
العقد الفريد تح / د . مفيد قميحة ، ط دار الكتب العلمية ببـــيروت / الأولى / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م .

٦- ابن عصفور الأشبيلى (أبو الحسن على بن مؤمن ابن محمد)
الممتع فى التصريف / تح / د . فخر الدين قباوة ، نشـــر دار الآفـــاق الجديدة / بيروت / الرابعة / ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

٧- ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن زكريا)
- مقاييس اللغة تح / هارون ، طبعة الحلـــبى الثانيـــة ١٣٨٩ هـــ - ١٩٦٩ م .

- الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها ، ط المؤيد بالقاهرة ، نشر المكتبة السلفية ، ط ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م .

٨- ابن قتيبة الدينورى (أبو محمد عبد الله بن مسلم)
أدب الكاتب / تح / محمد الدالى / ط مؤسسة الرسالة بيروت ، الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

٩- ابن مكى الصقلى (أبو حفص عمر بن خلف بن الحميدى)
تثقيف اللسان وتلقيح الجنان / تح / عبد العزيز مطر ، ط / دار المعارف ، ١٩٨١ م .

١٠- ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم)
لسان العرب / ط / دار المعارف .

١١- أبو الطيب اللغوى (عبد الواحد بن على)
مراتب النحويين / تح / محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة نهضة مصر ، ط / ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

١٢- الاستربازى (رضى الدين محمد بن الحسن)
- الكافية فى النحو لابن الحاجب / ط دار الكتب العلمية ببيروت ، الثالثة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- شرح شافية ابن الحاجب تح / مجموعة من الأساتذة ، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢ - ١٩٨٢ م .

١٣- ابن الأنبارى (أبو البركات عبد الرحمن بن محمد)
الإنصاف فى مسائل الخلاف ، ط ١٩٨٢ م .

١٤- المستشرق / برجشتراسر
التطور النحوى للغة العربية ، تقديم د / رمضان عبد التواب ، نشر مكتبة الخانجى القاهرة / ط ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

١٥- البطليوسى (ابن السيد أبو محمد عبد الله) .

المثلث / تح / صلاح الفرطوسى / ط العراق / الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

١٦- البغدادى (عبد القادر بن عمر)
خزانة الدب ولب لباب لسان العرب ، تح / هارون طبعة الهيئة العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ م .

١٧- التبريزى (أبو زكريا يحيى بن على الشيبانى)
شرح المفضليات تح / على البجاوى، ط دار نهضة مصر بدون تاريخ .

١٨- التوحيدى (أبو حيان على بن محمد بن العباس)
الإمتاع والمؤانسة تح / أحمد أمين وأحمد الزين ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٣٧٣ م .

١٩- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)
البيان والتبيين / ط دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ .

٢٠- الأستاذ / جورجى زيدان .
الفلسفة اللغوية ، نشر دار الجيل / بيروت / الأولى ١٩٨٢ م .

٢١- الدكتور / حسن ظاظا .
اللسان والإنسان ط دار القلم / دمشق / الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٩١ م .

٢٢- الخليل بن أحمد الفراهيدى
كتاب العين / الجزء الأول / تح / د . عبد الله درويش .

٢٣- الزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن)
لحن العامة / تح / د . عبد العزيز مطر ، نشر دار المعارف ١٩٨١ م .

٢٤- الزمخشرى (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر)
أساس البلاغة / ط الهيئة المصرية العامة للكتاب / الطبعة الثالثة ١٩٨٥ م .

٢٥- سيبويه (أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر)

الكتاب / تح / هارون / ط الهيئة المصرية العامـــة للكتـــاب / الثانيـــة ١٩٧٧ م .

٢٦- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن)

- المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، ط / دار التراث بالقاهرة / الثـالث بدون تاريخ .

- المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب ، تح / د . إبراهيـــم أبـــو سكين ط / القاهرة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٢٧- د / صبحى الصالح

دراسات فى فقه اللغة العربية / ط دار العلم بيروت ، الرابعـــة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

٢٨- الأستاذ / الطاهر أحمد الزاوى :

ترتيب القاموس المحيط للفيروزابادى ، ط / الحلبى / الثانية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

٢٩- الأستاذ / عباس محمود العقاد .

- اللغة الشاعرة / نشر مكتبة غريب ، القاهرة / بدون تاريخ .

- أشتات مجتمعات/ ط دار المعارف / الرابعة / بدون تاريخ .

٣٠- الدكتور / عبد الصبور شاهين

العربية لغة العلوم والتقنية / طبعة دار الاعتصـــام القـــاهرة / الثانيـــة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

٣١- الدكتور / على الواحد وافى .

فقه اللغة / ط دار نهضة مصر / بدون تاريخ .

٣٢- الفيومى (أحمد بن محمد بن على المقرى)

المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى ، ط بيروت بدون تاريخ .

٣٣- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)

الكامل فى اللغة والأدب / المكتبة التجارية ، القاهرة .
٣٤- النديم (أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب)
الفهرست تح / رضا تجدد / ط ١٩٧١ م .
٣٥- مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
المعجم الوسيط ط المكتبة الإسلامية ، تركيا / الطبعة الثانية ١٩٧٢ م .
وهناك بعض المراجع فى حاشية البحث لم يتسع البحث لذكرها .